

سلسلة فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

٤٤

الإسلام وصراع الحضارات

الدكتور أحمد القديدي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم



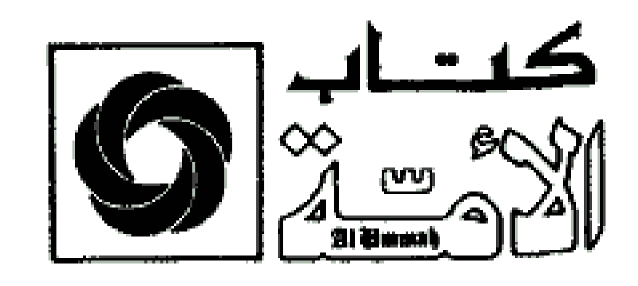
الطبعة الأولى

ذو الحجة ١٤١٥هـ

أيار (مايو) ١٩٩٥م

١ر٢١٠
أحمد القديدي
الإسلام وصراع الحضارات / تاليف : أحمد القديدي .
الدوحة : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ١٩٩٥م .
١٤٥ ص ، ٢٠ سم . (كتاب الأمة ٤٤) .
(ايداع : ٥٢/١٩٩٥) .
الرقم الدولي (ردمك) : ١ - ١٤ - ٢٣ - ٩٩٩٢١
أ . العنوان ب . السلسلة .

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها



صدر منه :

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية

« طبعة ثالثة » - الشيخ محمد الغزالي

- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف

« طبعة ثالثة » - الدكتور يوسف القرضاوي

- العسكرية العربية الإسلامية

« طبعة ثالثة » - اللواء الركن محمود شيت خطاب

- حول إعادة تشكيل العقل المسلم

« طبعة ثالثة » - الدكتور عماد الدين خليل

- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

« طبعة ثالثة » - الدكتور محمود حمدي زقزوق.

- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري

« طبعة ثالثة » - الدكتور محسن عبد الحميد

- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين

« طبعة ثالثة+طبعة إنجليزية » - الدكتور نبيل صبحي الطويل

- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي

« طبعة ثانية » - عمر عبيد حسنه

- أدب الاختلاف في الإسلام

« طبعة ثانية » - الدكتور طه جابر فياض العلواني

- التراث والمعاصرة

« طبعة ثانية » - الدكتور أكرم ضياء العمري

- مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي

« طبعة ثانية » - الدكتور عباس محجوب

- المسلمون في السنغال ـ معالم الحاضر وآفاق المستقبل

« طبعة أولى » – عبد القادر محمد سيلا

- البنوك الإسلامية

« طبعة أولى » – الدكتور جمال الدين عطية

- مدخل إلى الأدب الإسلامي

« طبعة أولى » – الدكتور نجيب الكيلاني

- المخدرات من القلق إلى الاستعباد

« طبعة أولى » – الدكتور محمد محمود الهواري

- الفكر المنهجي عند المحدثين

« طبعة أولى » – الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

- فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار

الجزء الأول والثاني «طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ عمر عبيد حسنه

- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر

« طبعة أولى » – الدكتور زغلول راغب النجار

- دراسة في البناء الحضاري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمود محمد سفر

- في فقه التدين فهماً وتنزيلاً

الجزء الأول والثاني «الطبعة الأولى»+طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبدالمجيد النجار

- في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات ـ التوزيع ـ الاستثمار ـ النظام المالي)

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور رفعت السيد العوضي

- النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية ـ دراسة مقارنة

«طبعة أولى»+طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد محمد كنعان

- المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبد العظيم محمود الديب

- مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ نخبة من المفكرين والكتاب

- مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- الصحوة الإسلامية في الأندلس

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور علي المنتصر الكتاني

- اليهود والتحالف مع الأقوياء

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

- الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ منصور زويد المطيري

- النظم التعليمية عند المحدثين

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ المكي اقلاينة

- العقل العربي وإعادة التشكيل

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور عبد الرحمن الطريري

- إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور يوسف إبراهيم يوسف

- أسباب ورود الحديث

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور محمد رأفت سعيد

- في الغزو الفكري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

- قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي (الجزء الأول)+(الجزء الثاني)

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور أكرم ضياء العمري

- فقه تغيير المنكر

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور محمد توفيق محمد سعد

- في شرف العربية

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور إبراهيم السامرائي

- المنهج النبوي والتغيير الحضاري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ برغوث عبد العزيز بن مبارك

قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(الحج)

تقـــــــديم

بقلم : عمـر عبيـد حسنـــــه

الحمـد لله ، الذي اصطفى الأمــة المسلمـة ، لوراثة الكتـاب بقولــه : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (فاطر:٣٢)، وجعلها خير أمة أخرجت للناس ، بما تحمل من رسالة ، وما تقوم به من وظيفـة، وما تؤديه من أمانة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، قال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وما تقيمه من موازين العدل، والرحمة في حياة الناس، وتقوّم سلوكهم بشرع الله، لأنها الأمة الوسط، الأمة المعيار التي وكل إليها، بما تمتلك من قيم الوحي السماوي السليم، الشهادة على الناس، وتصويب مسيرتهم، قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣)، وبما تمتلك من رصيد التجربة التاريخية للأنبياء مع أقوامهم، إضافة إلى ماتتمتع به من خصائص، وصفات إنسانية، ماتزال مفقودة عند كثير من الأمم، التي يقوم كيانها على العروق، والأجناس، والألوان، وما يشابهها من الأمور القسرية، التي لا يد للإنسان في كسبها، والتي مهما ادعى صاحبها الرقي والحضارة، لا تنجو من التمييز،

والتعصب، والروح العدوانية، تجاه الآخر، والشعور بالتعالي، الذي يقود إلى الحقد، والنزاع غير المشروع، ويكفي تاريخها وواقعها دليلاً، على أن هذه الأمم، بخصائصها، ومقوماتها، التي هي عليها، لا تمتلك رسالة إنسانية، وعطاءاً عالميًّا، وامتداداً تاريخيًّا، إلا بفعل السيطرة والاستعمار، لأنها ترفض بأصل تكوينها، فلسفة المساواة الإنسانية، وتحقيق تكافؤ الفرص، وحرية الاختيار، التي تعتبر روح الحضارة الممتدة، حيث تتأصل بها كرامة الإنسان.

وقد تكون مشكلة المسلمين ، وخاصة في مراحل الكمود، والخمود، والوهن الحضاري، وشيوع التقليد، وغياب الوعي الجماعي، وانطفاء الفاعلية، في محاولة بعضهم التفكير بدخول جحور الضباب – حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه – التي تعيشها الحضارات الأخرى، واختزال التاريخ الحضاري، بعصر واحد، والانبهار بالطفرات الحضارية، أو الخداع الحضاري، واستبدال الذي هو أدنى، بالذي هو خير، والعجز عن إدراك الإمكان الحضاري، الذي تمتلكه الأمة المسلمة، لو تمثلت إسلامها، واستشرفت ماضيها، وأبصرت مستقبلها حقيقة.

والصلاة والسلام على الرسول القدوة ، الذي جاء للعالمين بشيراً ونذيراً، وكانت الغاية من ابتعاثه، إخراج الناس، من الظلمات إلى النور، ووضع الآصار والأغلال التي عليهم، وتزكية البشرية، وإلحاق الرحمة بها، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) ، وتقديم الأنموذج الحضاري الإنساني، على الأصعدة المتعددة، المتحقق من

خلال عزمات البشر، وهدايات الوحي، المرشد إلى سنن البناء، ليكون محلاً للاقتداء والتأسي، بعيداً عن عبث الإنسان، وأهواء الإنسان ، وتسلط الإنسان على الإنسان ، حيث لا أسوة بغيره، ولا اقتداء بسواه، لأنه مسدد بالوحي، ومؤيد به، وكل إنسان غيره، يؤخذ من كلامه ويرد، ويجري عليه الخطأ والصواب، والانحراف والاستقامة.

لذلك كان من أهم عوامل الإمكان، والارتكاز الحضاري، امتلاك الأمة المسلمة للقيم السماوية السليمة، التي لم يداخلها تحريف، ولا تبديل، إلى جانب امتلاكها أنموذج الاقتداء والتجسيد، والعطاء لهذه القيم، الذي استوعب جميع الأحوال التي تمر بها الأمة، من سقوط ونهوض، واستضعاف وتمكين، ودعوة ودولة، على مستوى الفرد، والمجتمع، والأمة، والدولة.. إنها أمة تمتلك القيم، وتمتلك الأنموذج التطبيقي، ليكون دليلها في كل حالة تمر بها.

وبعد :

فهذا كتاب الأمة الرابع والأربعون: «الإسلام وصراع الحضارات»، للدكتور أحمد القديدي، في سلسلة كتاب الأمة، التي يصدرها مركز البحوث والدراسات، بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في دولة قطر، مساهمة في إعادة بناء فاعلية المسلم المعاصر، الصالح بنفسه، المصلح لغيره، من خلال إحياء وعيه، بموقعه الثقافي، ورسالته الإنسانية، وأمته المعيار، وإمكاناته في النهوض، وقدرته على استئناف السير، وإحياء شخصيته الحضارية التاريخية، وتوضيح ملامح حضارته، وبيان قسماتها، ونقاط

ارتكازها، والدور المنوط به اليوم – على الرغم مما يعانيه – «لإخراج الناس، من عبادة العباد، إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا، إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام»، واستنقاذه من العبث الثقافي، والضلال الحضاري، وتبصيره بالسنن الإلـٰهية، في الأنفس والآفاق، التي تحكم الحياة والأحياء، والتي هي أشبه بقوانين مطردة، تمثل أقدار الله الغلابة التي لا تتبدل، ولا تتغير، ليحسن التعامل معها، ويمتلك القدرة على تسخيرها ، ومغالبة قدر بقدر ، والفرار من قدر إلى قدر. يقول ابن القيم رحمه الله : ليس الرجل الذي يستسلم للقدر، بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله (مدارج السالكين ج١).

وقد يكون من المفيد هنا ، أن نشير إلى أن الصراع ، أو التدافع، أو التداول، أو الحوار الحضاري ، سنة اجتماعية، من سنن الله تعالى وقوانينه، التي لا تتخلف، ولا تتبدل، كما أنها سنة فردية أيضاً، فالإنسان كفرد، ليس خارجاً عن دائرة الصراع والتدافع الذاتي، في الاختيار بين دوافع الخير، ونوازع الشر، في نفسه، لأن في ذلك تتحدد حرية الإنسان في الاختيار، وتتميز كرامته، ويبين فضله؛ والشر من لوازم الخير، وبضدها تتميز الأشياء.

فالصراع والتدافع، هو سبيل الحيوية، والنمو، والازدياد، وعلامة الحياة والاستمرار، ابتداءاً من الخلية، وانتهاءاً بالحياة الحية.. وهو إحدى محركات الحياة الاجتماعية، وامتداد التاريخ البشري، وله صوره المتعددة، وشوكاته المتنوعة، من الحوار، والمفاكرة، والمثاقفة، والمناظرة، والقتال،

والمواجهة، والمنافسة، والسباق، والمغالبة، كلها صور ومعارك، منها: المشروع المحكوم بضوابط ليست من وضع الإنسان، ومنها ما يستخدم وسائل غير مشروعة، وكل ذلك يقع ضمن دائرة الصراع الحضاري، الذي يندفع من عقائد وأنساق معرفية، ورؤى قيمية، وأنماط حياتية وسلوكية، تمتاز بخصوصيتها، وتسعى للبرهنة على أحقيتها، وإثبات وجودها، فهي أشبه ما تكون في خصوصيتها ببصمات الأصابع، وسحن الوجوه، وملامح الشخصية، لا يمكن أن تتطابق، ذلك أن التطابق، يعني التوقف والموت.

والصراع بين الخير والشر، والعدل والظلم، والحب والحقد، والعفو والثأر، والإيثار والأثرة، والحق والباطل، وبعبارة أخرى: الصراع بين المعروف والمنكر، لا يتوقف إلا بتوقف الحياة.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان:٣١) وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام:١١٢).

إنها ابتلاءات الحياة: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (المائدة:٤٨).

فإبليس أبى السجود والطاعة لأمر الله، وتمرد، منذ بدء الخليقة، وقال: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الأعراف:١٤) فقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (الحجر: ٣٧ – ٣٨)،

واستمرت رحلة الغواية والصراع، وكان لها جولات ممتدة في تاريخ البشرية، أفراداً وجماعات، وأخذت أشكالاً متنوعة، وفاعليات متفاوتة، واستراحات، واسترخاءات، هي غالبًا ما تكون استعداداً لجولات جديدة.
﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود : ١١٨) ، ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (محمد : ٤).

ولعل من مظاهر رحمة الله، هذا التدافع والاختلاف، الذي من خلاله يتحصحص الحق، ويتمحص، وبسببه تنجو الحقيقة، من الدمار، والخير من الجفاف، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج : ٤٠)، وقال: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ (البقرة : ٢٥١)، وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (الرعد : ١٧).

لذلك رأى بعض العلماء في ضوء ذلك، أنه من المستحيل واقعًا وشرعًا، أن يسلط الله على البشرية ظالمًا واحداً، يتحكم في مصيرها، لفترة طويلة، ذلك أن التدافع يكون بين الظلمة أنفسهم، وبينهم، وبين الحق، وهذا سنة جارية، في الحياة، حتى يتوقف التاريخ، ويتغير نظام الكون.

وأعتقد أن من أعظم الخلل الذي لحق بالعقل المسلم المعاصر، ما يكمن في عدم التأصيل، والتأسيس، لعلم السنن، من خلال نضج الرؤية القرآنية،

وتنزيلها على الواقع، في السيرة والسنة، ومن خلال استقراء محركات الصراع، في تاريخ البشرية، وعوامله، وأسبابه، ونتائجه.. إن هذا الخلل، هو غياب عن الوعي، تطيش معه السهام، وتضل معه العقول، ويقع الإنسان معه فريسة للمفاجآت، والعجز عن التعامل معها، لأنه عاجز ابتداءً عن فهم المقدمات، والأسباب الموصلة لها.

والذي يدرك سنة التدافع والصراع، وأطرافه، وميادينه، وأسلحته، ومساراته، يصبح قادراً على حسن تسخيره، والفقه بنتائجه، ويمتلك القدرة على المداخلة، والتحكم، ومغالبة سنة بسنة، أو قدر بقدر - كما أسلفنا - ويمتلك القدرة على الحركة في كل الظروف وإيجاد مساحات لزرع الحقيقة، وتنميتها.

ومن هنا ندرك بدقة مغزى ومعنى قول الرسول ﷺ: « ... **وإن الله ليؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر** » (أخرجه البخاري).

وندرك النتائج العظيمة، من نصرة الحق التي ترتبت على قدرة وحكمة الصحابي الجليل نعيم بن مسعود رضي الله عنه في غزوة الأحزاب، عندما رمت العرب المسلمين عن قوس واحدة، حيث تكالبت عليهم، وتحالفت: اليهودية، والوثنية، والقبلية، وابتلي المؤمنون هنالك، وزلزلوا زلزالاً شديداً، حتى لقد بلغت القلوب الحناجر، وبدأت الظنون، تتسرب إلى النفوس الضعيفة، قال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ (الأحزاب: ١٠-١١).

في هذه اللحظات الحاسمة وهذه الشدة الشديدة من المواجهة، أسلم نعيم بن مسعود، وجاء خفية إلى الرسول ﷺ، وقال فيما ترويه كتب السيرة: أسلمت، ولم يعلم أحد بإسلامي، فمرني بما ترى، فقال له الرسول ﷺ: - بما معناه - **«إنما أنت فينا واحد، وإن الحرب خدعة، فخذّل عنا ما استطعت»** فكان ما كان من نعيم، من فهم، واستيعاب، وفقه لسنة التدافع وعوامله، ومداخله، وكان النصر بعد الشدة، وكان بلاء نعيم في الوقت المناسب وفاعليته، أعظم من جيش كامل، بخططه وعدده.

صحيح، بأن المسلم، يعتقد، بأن النصر من عند الله، وهي حقيقة، يجب ألا تغادر نفسه، لكن صحيح أيضًا، أن هذا النصر أراده الله أن يتحقق من خلال أقدارٍ وسننٍ، وعزمات بشر، وأسباب ومسببات، وكم يحتاج المسلمون اليوم - في حالات الحصار التي تفرض عليهم ويعانون منها أشد المعاناة - إلى نماذج ذكية، فقيهة بسنن وأقدار التدافع الحضاري، قادرة على دخول حلبة الصراع، بجدارة واقتدار، إلى درجة قد تمكن من إدارة الصراع، وتحقيق كسب أكبر، للقضية الإسلامية.

كم نحن بحاجة إلى نماذج من أمثال نعيم، قادرة على التحرك في الوقت المناسب، وحسن استخدام المتاح، ذلك أن الإنسان المسلم، بمقدوره أن يحقق الكثير الكثير، إذا أدرك إسلامه وعقيدته، وفقه المعادلة الاجتماعية، التي يعيشها.

ومن هنا ندرك، كيف يمكن أن يكون الفرد أمة، وخاصة عند غياب الأمة.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في تفسير المنار، عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧):

«إن إرشاد الله إيانا، إلى أن له في خلقه سننًا، يوجب علينا، أن نجعل هذه السنن علماً، من العلوم، لنستديم ما فيها من الهداية، والموعظة، على أكمل وجه، فيجب على الأمة – في مجموعها – أن يكون فيها قوم يبيّنون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم، من العلوم والفنون، التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبيّنها العلماء بالتفصيل، عملاً بإرشاده، كالتوحيد، والأصول، والفقه.

والعلم بسنن الله تعالى، من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه على أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض، لأجل اجتلائها، ومعرفة حقيقتها» (انظر تفسير المنار، المجلد الأول).

ويقول الشيخ محمد عبده رحمه الله:

ولا يحتج علينا، بعدم تدوين الصحابة لها، فإن الصحابة، لم يدونوا غير هذا العلم، من العلوم الشرعية، التي وضعت لها الأصول والقواعد، وفرعت منها الفروع والمسائل، وإنني لا أشك، في كون الصحابة، كانوا مهتدين بهذه السنن، وعالمين بمراد الله من ذكرها، يعني أنهم، بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية، والشعوب القريبة منهم، ومن التجارب، والأخبار، في الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء، والحذق، وقوة

الاستنباط، كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى، ويهتدون بها في حروبهم، وفتوحاتهم، وسياساتهم للأمم، التي فتحوها، وما كانوا عليه من العلم، بالتجربة، والعمل، أنفع من العلم النظري البحت، وكذلك كانت علومهم كلها.

ولما اختلفت حالة العصر اختلافًا ، احتاجت معه الأمة، إلى تدوين علم الأحكام، وعلم العقائد، وغيرهما، كانت محتاجة أيضًا، إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية، أو علم السياسة الدينية، سم بما شئت، فلا حرج في التسمية.

والسنة كما هو معلوم: الطريقة المعتبرة، والسيرة الحميدة المتبعة، والقانون المطرد ، الذي لا يتبدل ، ولا يتحول ، قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٢)، فالحياة لم تخلق عبثًا، وإنما خضعت لسنن وقوانين، وأمر البشر في اجتماعهم، وما يعرض فيه من الصراع، والتدافع الحضاري، بين الحق والباطل، وما يتبع ذلك، من الحرب، والنزال، والملك، والسيادة، والتداول الحضاري، يجري على طرق قويمة، وقواعد ثابتة، فمن سار على سنن الله ظفر بالفوز، وإن كان ملحداً، أو وثنيًا، ومن تنكبها، خسر، وإن كان صدّيقًا، أو نبيًّا.

وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في أحد، وكذلك في أول المعركة في حنين، ويتخرج انتصارهم على الأصعدة المتعددة، (انظر تفسير المنار).

لذلك قد يكون من الأولويات المطلوبة في الفهم والتفكير الإسلامي اليوم، إدراك أمر السنن والأسباب، والأقدار، وامتلاك القدرة على التعامل

معها، وتسخيرها، ودخول حلبة الصراع الحضاري، بميادينه المتعددة، بأدواته ووسائله النوعية المطلوبة، ذلك أن دخول أية معركة، بدون أسلحتها الفاعلة، سوف يؤدي إلى الخسارة الفادحة، فالتعامل مع أي ظاهرة دون تحليلها ومعرفة أسباب نشوئها واستيعابها، والإحاطة بها، سوف يوقع بإحباطات كبيرة، ومفاجآت غير متوقعة أو محسوبة.

وهذا لن يتأتى بالأماني والرغبات، ولن يتأتى بالصراخ والعويل، ولن يتأتى من زيادة الحماس، وزيادة التوثب الروحي، ولن يتحقق لعامة الناس، وإنما لا بد له من وعي كامل بمعرفة الوحي، في الكتاب والسنة، كأمر لا بد منه لبناء المرجعية، وتشكيل مركز الرؤية، ومن ثم التحقق بالتخصص في فروع المعرفة والعلوم المتعددة، وبخاصة العلوم الاجتماعية، وتأسيس مراكز بحوث ومعلومات ودراسات يقوم عليها متخصصون، يمثلون أهل الحل والعقد فيما اختصوا فيه، وإحلال العقل الجماعي المؤسس، محل العقل الفردي.

وأستطيع أن أقول: بأن أية مفاجأة بالنتائج، تعني من بعض الوجوه، نوعًا من البلاهة، كما تعني عدم إدراك المقدمات، فلكل قضية علمها المطلوب، لإدراكها، وفهمها، والقدرة على التعامل معها، ومن هنا يمكن أن ندرك بعض أبعاد قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ (يونس:٣٩).

وفي ضوء ذلك يمكن أن نفسر الإصابات والارتكاسات، وتوالي الهزائم، واستمرار السقوط، والانحدار، والانكسار، والتراجع، الذي يمنى

به العالم الإسلامي والمسلمون بشكل عام.

ولا سبيل أمامنا للإحاطة بعلم الأشياء ، على الأصعدة المتعددة، وعلى الأخص في مجال التدافع الحضاري الذي لا يتوقف، ما لم ندرك السنن، التي شرعها الله، لتحكم حركة الحياة، وسلوك الأحياء، ذلك أن الفقه بالسنن، هو الذي يحقق لنا الفرقان، من إدراك المقاصد، وإبصار المخارج، وامتلاك الوسائل، ودخول حلبة الصراع، بالمؤهلات المطلوبة.

وقد يكون من المفارقات العجيبة، والمؤرقة حقًّا، في الحالة الإسلامية اليوم، أن المسلمين ما يزالون يمتلكون الخطاب الإلهي السليم، دون سائر الأمم، يمتلكون معرفة الوحي، التي توقفهم على تاريخ الحضارات، نهوضًا وسقوطًا، وخلاصة التجربة البشرية، والسنن التي حكمتها في التدافع، والسقوط والنهوض، لكنهم يعجزون عن الإفادة منها.

لقد قدمت معرفة الوحي، في الكتاب والسنة، الخلاصات، والنماذج المطلوبة، من قصص الأنبياء، التي تعتبر منجمًا زاخرًا بالعبر والدروس، وعطاءً لا ينفد للتدافع، والصراع بين الخير والشر، والنتائج والمآلات التي تحققت وفق هذه السنن الإلهية في التاريخ، الذي يعتبر المختبر البشري الدقيق لفاعلية هذه السنن، حتى لقد جعلت معرفة الوحي السير في الأرض والنظر في أحوال الأمم السابقة، وإدراك السنن والقوانين، التي حركت مسار التاريخ، أو تحرك التاريخ في مسارها، من العلوم المطلوبة للمسلمين، والتي بدون العلم بها سوف يخرجون من التاريخ، وينقلبون من وسيلة محركة فاعلة، قائدة، مُسَخِّرة، إلى أداة معطلة مُسَخَّرة.. سوف يتحولون من

صناعة التاريخ، إلى أن يكونوا محلاً لحركة التاريخ، وتجاربه.

وبالإمكان القول: إن علم السنن التي شرعها الله للأنفس والآفاق، تعتبر من الفروض الكفائية، أو من الفروض الحضارية، التي غفل عنها المسلمون جماعات، وجمعيات، ودولاً، وأفراداً، اللهم إلا من بعض الملحوظات والإضاءات، والإشارات، والبدايات، التي لم ترق إلى مستوى العلم.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٧-١٣٨)، فأين السير في الأرض المأمور به شرعاً، والتوغل في التاريخ، واكتشاف السنن التي طلب القرآن تحصيلها، والاهتداء بها إلى الفعل الصواب، والاتعاظ بما تحقق منها، في إطار الأمم السابقة، والقيام بعملية المغالبة بين سنة وسنة، وبين قدر وقدر؟

إن قسماً كبيراً من المسلمين اليوم، يسيرون في الأرض، ويذهبون إلى بلاد الحضارات الأخرى، سير البلهاء، والمغفلين اللاهين، الذين ينتهي بهم قصدهم ويتحقق على مزابل الحضارة الغربية وإباحيتها، أو على أحسن الأحوال يقرأون الحضارة قراءة خاطئة لا تسمن ولا تغني من جوع، وقد تسخرهم وتسحرهم، بدل أن يسخروها، ويعتبروا بإصاباتها.

إن السنن هي أمر الله، وقدره الثابت، الذي لا يتبدل، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (الأحزاب:٣٨).

ونعترف أن علم السنن، تأصيلاً وتأسيساً، لما يأخذ بعد طريقه إلى

المسلمين، وأكثر من ذلك، إلى المؤسسات الإسلامية الرائدة، المنوط بها إخراج الأمة والعالم الإسلامي، من حفر التخلف، التي يعيش فيها، في الوقت، الذي أصبحت فيه مراكز البحوث والدراسات، والمعلومات، المتخصصة في نطاق الحضارة الغربية، التي تسعى إلى الغلبة والتفوق، والسبق، تتجاوز التصور.

لقد أصبحت مراكز البحوث والمعلومات، جزءاً لا يتجزأ من نواتج الحضارة، ولوازمها، وأصبحت وسيلتها الفاعلة، في إدارة الصراع والحوار الحضاري.. أصبحت جزءاً من البيئة العقلية، للنظام الحضاري الغربي، ومرتكزاً من مرتكزات النظام المعرفي، وحاسة متقدمة من حواس صاحب القرار السياسي، وجانبا هاماً من مباني الجامعات، والمعاهد، والمدارس.. إنها مختبرات الفحص، والتحليل، والاختبار، لكل الظواهر الاجتماعية، والنواتج الفكرية التي تمكن من التخطيط المستقبلي، وصناعة القرار.

في الوقت الذي نرى فيه عالم المسلمين - إلا من رحم الله - لا يزال يمارس حالة الانتظار، أو يعيش في غرفة الانتظار، حتى تسقط الحضارة الغربية لصالحه، دون أن يكون صالحاً مصلحاً، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥).

إن الكثير من المسلمين اليوم، يعاني من إصابة الأمية، التي أخبر الله عنها في أهل الكتاب، حيث قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ (البقرة:٧٨).. إنهم مسلمو اليوم.

قال ابن تيمية رحمه الله: عن ابن عباس وقتادة رضي الله عنهما، في قوله تعالى ﴿ **ومنهم أميون** ﴾ ، أي غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظًا، وقراءةً، بلا فهم، لا يدرون ما فيها...

وقوله : ﴿ **إلا أماني** ﴾ ، أي تلاوة، لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يتلى عليهم.

وعن الإمام أحمد رحمه الله قال:

ذكر النبي ﷺ شيئًا ، فقال: « **... وذلك عند ذهاب العلم** » . قلنا : يارسول الله : كيف يذهب العلم، ونحن قرأنا القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم؟ فقال: « **ثكلتك أمك يا ابن لبيد ، إن كنت لأراك ، من أفقه رجل في المدينة ، أوليس هذه اليهود والنصارى ، بأيديهم التوراة ، والإنجيل ، ولا ينتفعون مما فيهما بشيء** »؟! (الحديث رواه أحمد في مسنده، ورواه ابن ماجه في سننه، عن زياد بن لبيد الأنصاري، رضي الله عنه، في كتاب الفتن، ورواه الترمذي في سننه في باب: ما جاء في ذهاب العلم، وقال: وهذا حديث حسن غريب).

إن الحالة السلبية، الانسحابية، الإرجائية، التي يعيشها معظم المسلمين اليوم ، انعكست على فهمهم للدين ، لإيجاد مسوغات، ومشروعيات لحالهم.

إنهم ينتظرون السنن الخارقة، ويعدلون عن السنن الجارية، ولا يحسنون فقه الكتاب ، ومع ذلك يندبون حظهم العاثر ، والله تعالى يقول: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (النساء:١٢٣).

ولعل من أخطر ميادين التدافع الحضاري، أو إن شئت فقل: الحوار الحضاري - وما الحوار إلا صورة من صور التدافع - مشكلة تحديد المفاهيم والمصطلحات، والمفردات المعرفية، التي تعبر عن الثوابت الحضارية والمرجعية الثقافية، ذلك أن المفاهيم، والمصطلحات، أو ما يمكن أن نعبر عنه بعالم الأفكار، والعقائد، هي وسائل التحصين، وأسلحة التدافع، وأدوات الحوار الحضاري.

لذلك أعتقد أن الغفلة عن مدلول المفاهيم الشائعة، أو التي يراد إشاعتها في عالم المسلمين، والسماح بالاستقرار لدلالاتها بالذهنية الإسلامية، وتأنيسها أو الأنس بها، يعتبر من الغفلة عن الأسلحة، وأول مراحل الوهن، والاغتراب، قال تعالى: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (النساء:١٠٢).

من هنا نقول: إن وضوح المفهومات والمصطلحات الإسلامية، ومحاولة إشاعتها، وإحيائها، وإدراك دلالاتها، يعتبر من الأمور المهمة في بناء المرجعية، والتحصين الثقافي، والانطلاق إلى ميادين التدافع والحوار، بالزاد الكافي، لأن المفهومات والمصطلحات الإسلامية تشكل أوعية التفكير، وجذوع النسغ الحضاري، الممتد، من الماضي، إلى الحاضر، والمستقبل، وتمثل خلاصات لمعطيات الوحي والعقل معًا، إضافة لما لها من رصيد نفسي وثقافي، واختبار تطبيقي تاريخي، يجعلها محل ثقة واستمساك.. إنها باختصار تشكل ملامح حضارة الأمة، وقسمات

شخصيتها، ومحصلات الفكر، وأبجديات قراءة الهوية، ومعالم الطريق.

لذلك فأي تنازل عنها، باسم الحداثة، أو العصرية، أو حتى مقاربتها بمصطلحات أو مفهومات الآخر، هو تخل عن الذات، وتوهين لقيم الأمة، في معركة الصراع الحضاري، وعدول عن الانتماء، إلى الارتماء، والسقوط لصالح الآخر.

من هنا نقول : لا بد من البصارة، والفقه، والدقة الكاملة، في فحص واختبار المفاهيم، والمصطلحات السائدة، والتعرف على منطلقاتها، وأهدافها، ودلالاتها، وخلفياتها الثقافية.

ذلك أن المعركة الثقافية، التي بدأت تتبلور لصالح الحضارة الغربية ومصطلحاتها على الساحة العالمية اليوم، هي الأخطر، ولئن كنا نعاني سابقًا، من السقوط، والانهزام، والتخلف، في عالم الأشياء، فهذا يعني، أننا ما زلنا نحتفظ بالإمكان الحضاري، أو نحتفظ بعالم الأفكار والقيم، وخميرة النهوض، لكن الخطر اليوم يكمن في التضليل أو التطبيع الثقافي، المراد لهذه الأمة، ومحاولة توهين قيم الحضارة الإسلامية، ومقاربتها بالقيم الحضارية الغربية، لضمان قبولها ومرورها إلى الداخل الإسلامي، وذلك باستنبات كتاب، ومفكرين، وباحثين، وإعلاميين، وسياسيين، ومراكز للبحوث والدراسات في التربة الإسلامية، مسكونين بقيم الحضارة الغربية، ومفتونين بأشيائها، وإنجازها المادي، لتمكين مرورها إلى عالم المسلمين، باسم الانفتاح والحداثة، وتحقيق المشترك الإنساني، والعلمية، والموضوعية، والتجديد، والعقلانية،

والوسطانية .. إلخ.

فالشورى الإسلامية المأنوسة، بما لها من دلالات، وتطبيقات، وارتكاز عقيدي، والتي هي في نهاية المطاف، دين من الدين، تصبح الديمقراطية الغربية نفسها، مع التجاهل، أو التجاوز الكامل، لكل الخلفيات الفكرية لكل من الحضارتين والمصطلحين.

وأهل الذمة، بكل دلالة المصطلح في السيرة والسنة، والفكر والقيم، والتاريخ، يصبحون: مواطنين، لا ذمّيين، وكأن الذمي ليس مواطناً، يتمتع بحقوق وحماية إسلامية، قد تتجاوز حقوق المسلم!

وفصل الدين عن الدولة، وعزل الإسلام عن حكم الحياة، وحصره في المساجد، والعبادات التقليدية، والعلاقات الفردية بين الإنسان وربه، بعيداً عن حكم الحياة، تُفَصَّل له عملية التفريق بين الرسول النبي، الواجب الاتباع، في الأمور الدينية العبادية البحتة، والرسول الحاكم، الذي تعني سنته هنا اجتهاداً يمكن تجاوزه!

والضرورة الشرعية بكل ضوابطها، ودلالاتها، التي يجوز معها، وقف الأحكام لمرحلة، أو لحالة طارئة، تصبح هي المصلحة، الموهومة الموقوتة، التي تبيح تعطيل النصوص ومحاصرتها، ورفعها من التطبيق!

والجهاد في الإسلام إنما شرع لمحاربة الظلم، وليس لمقارعة الكفر، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤)!

والجهاد الذي هو أعلى أنواع العبادة والتضحية، هو من الفعل الاجتهادي والسياسات الشرعية، وليس من شؤون العقيدة، ومقتضيات

الدعوة!

لقد غابت ، أو غيّبت من حياتنا الثقافية اليوم، مفاهيم ومصطلحات: الكفر، والنفاق، والإيمان، والإسلام، والشرك، والتوحيد، ومصطلحات أهل الكتاب، وأهل الذمة، والمعاهدين، والنصارى، واليهود، والوثنيون، والباطنيون، والملحدون، والمشركون، تماماً، لتحتل عقولنا مصطلحات، ومعايير، ومفاهيم، ومقاييس، تطبّع الهزيمة، وتقرأ الحضارة المعاصرة، بأبجديات خاطئة، غير إسلامية، وتتحول حياتنا الفكرية إلى استخدام مصطلحات ومدلولات حضارة الآخر.

وقد تكون المشكلة أيضاً – إلى جانب من استُنبتوا في التربة الإسلامية، ليعملوا لصالح حضارة الآخر في المجالات المتعددة – فيما يسمى: النخب العربية الإسلامية، التي مُكِّن لها، لتحتل مواقع القدوة والقيادة، والتأثير، والتي ارتهن معظمها لتلك المفاهيم والمصطلحات الفكرية، بسبب دراستها وتخصصاتها، في معاهد ومدارس وجامعات الغرب، فهي رهينة المدرس، والمنهج، والكتاب، والمرجع، والتطبيق الحضاري، مع التوهم بأن ما تعلمته، هو معيار عام، لكل تقدم وإنجاز، حضاري، يصلح لكل أمة، مهما كانت عقيدتها ومعادلتها الاجتماعية.. لذلك والحالة هذه، فإن عملية الصراع أو الحوار الحضاري، سوف تكون محسومة لصالح الآخر.

فما يسمى اليوم ندوات للحوار الحضاري بين الإسلام والغرب، أو ندوات، لدراسة التيارات الفكرية في العالم الإسلامي، كالصحوة، وتياراتها، أو الأصولية وأسبابها، ودوافعها وأهدافها، وما إلى ذلك من

العناوين التي باتت تملأ الصحف والمجلات، يدعى للحوار والمشاركة، وتمثيل الإسلام، أو الطرف الذي يحاور عن الإسلام في هذه الندوات، بعض العلمانيين الذين يسكنون جغرافيًّا فقط في العالم الإسلامي، يدعى هؤلاء الذين لا يمثلون الثقافة والحضارة الإسلامية، ولا يعبرون عن ضمير أمتهم، لقلة بضاعتهم فيها، من جانب، ولأنهم منحازون بطبيعة دراستهم، وثقافتهم للغرب.

لذلك فالحوار معهم ليس حواراً مع الآخر، وإنما هو لون من النرجسية الثقافية، والتخاطب مع الذات، فالمؤسسات الغربية ومراكز البحوث والجامعات، عندما تدعوهم، فهي لا تدعو الآخر المسلم، وإنما تدعو تلامذتها وخريجيها، وحاملي ثقافتها، وتحاور بهم نفسها، وعلى ذلك فهي تزداد جهلاً بالإسلام، والعالم الإسلامي، وتعجز عن فهمه من الداخل، وتكرس الصورة المشوهة، والتفسيرات البعيدة، عن الحقيقة، هذا إذا أحسنا النية بأسباب الحوار وأهدافه.. كل هذا يتم اليوم باسم الحوار.

أما الحوار الحضاري أو الحوار مع الآخر، وإتاحة الفرصة لتوسيع دائرة التفاهم، وإبلاغ رسالة الإسلام إلى العالم، التي إنما جاءت لاستنقاذه، وإيصال دين الله إليه، بأفضل الوسائل، والمجادلة له بالتي هي أحسن، مع مراعاة أدب الحوار وشرائطه... فهو من الفروض الشرعية الكفائية، التي تعتبر من مسؤولية الأمة جميعها.

وأحب أن أوضح هنا: أن الحوار مع الآخر، وإتاحة الفرصة لتبادل الرأي، للوصول إلى قناعات معينة، أو للوصول إلى صيغ مشتركة، للتفاهم

والتعاون، هو مطلب إسلامي، وإحدى وسائل الدعوة والبلاغ المبين، إذا توافر للحوار شروطه، من إتاحة الفرص المتكافئة، وتحرير موضوع الحوار، والالتزام بآدابه، وأخلاقه، بل هو أكثر من مطلب إسلامي، أو أحد خيارات المسلم، إنه تكليف شرعي، يقع تحت مدلول قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (النحل: ١٢٥)، ذلك أن الدعوة إلى دين الله، وسبيله، محلها ابتداءً: الآخر.

ولم يقتصر القرآن على الأمر بالمجادلة، وإنما نص على أسلوبها، واشترط أن يكون بالتي هي أحسن، حتى لا يكون منفراً، وحتى يحقق الاقتناع عن اختيار، ولا يشكل حاجزاً نفسيًّا يحول بين الآخر والإسلام، خاصة أن الإسلام لا يخص جنساً، ولا لوناً، ولا قوماً.

وأحسب أن المبادرة بالحوار، والدعوة إليه، يجب أن تبدأ من عند المسلم، وأن يكون المسلم أكثر حرصاً عليها من الآخر.. ولعلي أرى في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤)، تكليفاً شرعيًّا لا يخص عصراً بعينه، ولا حادثة بعينها، ولا يجوز أن يعتبر سبب النزول قيداً لخلود النص، وتجرده عن حدود الزمان والمكان.. فمقتضى خلود النص يعني: أن التكليف جار وقائم في كل زمان ومكان.. والدعوة إلى الحوار، واللقاء بالآخر، ومحاجته بالتي هي أحسن، وظيفة المسلم،

لإلحاق الرحمة بالناس.. وما يمتلك المسلم من قيم سماوية معصومة منزلة من رب العالمين، وتجربة تاريخية فذة، وشخصية حضارية وثقافية، تجعله في موقع مكين، يدفعه إلى الإيجابية، وطلب الحوار، ويجعل مكاسبه من الحوار مقدرة ابتداءً، ذلك أن الآخر سوف يتأثر على كل حال، وليس بالضرورة أن تظهر النتائج بشكل سريع، فكثير من الصحابة رضوان الله عليهم سمع القرآن لأكثر من عشر سنوات، وكان الحوار بالقرآن، وكان المحاور الرسول ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، وجاء إيمانه متأخراً، ومع ذلك أبلى في الإسلام بلاءً حسناً، وانتصر هذا الدين على يده، في معارك كثيرة، فكرية، أو فقهية، أو عسكرية.

وكان الآخر هو الذي يتهرب من الحوار، ويغلق منافذه، ولعل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦)، مؤشر واضح على موقع المسلم في الحوار، وموقع الآخر، لذلك لا أرى عذراً ولا مصلحة في إقفال باب الحوار مع الآخر، أو نفيه، أو إلغائه، مهما كانت الأسباب، أو ترك المبادرة له، لتنظيم ندوات الحوار، وتحديد أهدافه، وموضوعه، واستدعاء بعض الإسلاميين لملء المربعات المرسومة لهم مسبقاً، بحيث تنتهي ندوات الحوار لتصب في مصلحة الآخر في نهاية المطاف، خاصة إذا كان الإسلاميون المدعوون ممن استُنبتوا على التربة الإسلامية، وغُرسوا فيها لهدف، حيث جعلت مهمتهم توهين القيم الإسلامية، ومقاربتها بقيم الحضارة الغربية، التي تمثل الآخر في الحوار الدائر اليوم.

وقضية الحوار مع الآخر، وإعادة النظر بمواصفات الخطاب الإسلامي المعاصر، وأدوات توصيله، ووسائل إبلاغه على مختلف الأصعدة، لم تعد خياراً للمسلم، في عصر ثورة المعلومات والاتصالات، وتطور وسائل الإعلام، حتى يكاد العالم يصبح قرية إعلامية صغيرة، وحيث امتدت حواس الإنسان من خلال وسائل الإعلام، لترى، وتسمع، وتستقبل، وترسل، إلى أقاصي الدنيا، وتعالت الأصوات في الدعوة إلى الحضارة الواحدة، والنظام العالمي الجديد..

والمطروح: كيف يستطيع المسلم استشعار التحدي الإعلامي والمعلوماتي، وامتلاك القدرة على أن يصب في هذه الأوعية الإعلامية، الموادّ النافعة، ويسجل حضوراً، أو شهوداً حضاريًّا، ويحوِّل النقم التي تصب من فوق رأسه، إلى نعم، في إيصال الإسلام إلى الناس؟

وهنا قضية، أرى أن إعادة التذكير بها، في غاية الأهمية، وهي أن الحضارة الإسلامية، هي في حقيقتها، وتاريخها، ونواتجها، حضارة إنسانية، لا تخص جنساً، أو لوناً، أو عرقًا، أو منطقة جغرافية، أو طبقة اجتماعية، وإن كان العرب وبلادهم هي قاعدتها، وهم حملتها الأوائل، لقد تجاوزت بدعوتها وممارستها كل الفوارق القسرية، التي لا يد للإنسان في وجودها، وجعلت معيار الكرامة، فعلاً كسبيًّا، بمقدور كل إنسان أن يرقى إليه، وليس أمرًا قسريًّا لا يد له فيه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (الحجرات: ١٣).

لقد جاءت معظم آيات القرآن المكية، تؤكد الوحدة الإنسانية، وتحطم الفوارق التمييزية، قبل أن يكون للمسلمين أمة، أو دولة، أو حكومة، أو موقعًا جغرافيًّا، وكانت الوحدة الإنسانية، أو وحدة الأصل البشرية، من المقومات الأساسية التي نص عليها الوحي، ولم يدع مجالاً لا للمساومة عليها، أو يسمح بتجاوزها، وكان عطاء الوحي موجهاً إلى العالمين، بل لقد كانت الغاية من الرسالة الإسلامية وإنتاجها الحضاري، هو إلحاق الرحمة بالناس كافة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وكان الإسلام أول من دعا إلى فكرة المواطن العالمي، في أمة الإسلام، والتمتع بالحقوق، والواجبات كافة، في دولة الإسلام، بمجرد أن يعتنق الإنسان الإسلام، كائنًا من كان، وبذلك انتفت عن الإسلام وحضارته إصابات العنصرية، والعرقية، ولوثة وعقدة الشعب المختار التي لم تبرأ منها الحضارات البشرية بشكل أو بآخر.

وبذلك فالإسلام بطبيعته يناقض التعصب، والانغلاق، ويعتبره من الجاهلية وآفاتها، ونخوتها، وتعاظمها بالآباء، وسفهها، لأن أسوار التعصب المحتمل، أو العارض، لا يلبث أن يكسر بمجرد الإيمان، والدخول بالإسلام، بينما نرى الحضارة الغربية، هي حضارة اللون والعرق والقوم، رغم ادعائها بالإنسانية.. إنها توبخ نفسها بادعاء الإنسانية، والمعيار الحضاري الإنساني، في أكثر من موقع من العالم، ولسنا بحاجة للتذكير، بتاريخها الاستعماري، كما أننا لا نرى أنفسنا بحاجة إلى القراءة في واقعها وممارساتها في فلسطين، والبوسنة، والشيشان، وغيرها من بلاد العالم.

والحضارة، أية حضارة، ترتكز إلى اللون، أو العنصر، أو القوم، أو العرق، أو الطبقة، هي حضارة عنصرية، عدوانية، بطبيعتها وأصل تكوينها، لا تستطيع أن تعيش بدون عدو أو عدوان، فإن لم يوجد لها عدو حقيقي، تصنع لنفسها عدواً، ولو كان وهمياً، لمعالجة مشكلاتها الداخلية، وتوجيه أنظار شعوبها إلى الخارج، فهي كالنار التي سوف تأكل بعضها، إن لم تجد ما تأكله.

لذلك رأينا كيف أن عسكر الحضارة الغربية حاولوا استعمار العالم واستنفاد خيراته، وامتصاص خبراته، وكيف أن مصانع، ومعامل، وجسور، وأنفاق بلاد الحضارة الغربية، إنما بنيت بأموال المستعمرات، وسواعد العمال، الذين جلبوا، والأرقاء الذين خطفوا من بلادهم الأصلية.

وأن أموال، وخبرات وطاقات العالم النامي، وعلى الأخص العالم الإسلامي، ما تزال موظفة بشكل أو آخر لصالح حضارة الغرب.

وكيف أن هذه الحضارات العرقية العنصرية، بمجرد أن يتوقف عدوانها على الخارج تنفجر فيها النزعات العنصرية الداخلية، وتقوم فيها الديكتاتوريات الاستبدادية.

إن فكرة الصراع الحضاري، أو التحدي الحضاري، أو ما يسمى صراع البقاء للأقوى، أو الصراع الطبقي، هي الأساس الذي تقوم عليه الحضارة الغربية، بمذاهبها المتعددة، وتطبيقاتها المتنوعة.. والصراع يعني - فيما يعني - محاولة إلغاء الآخر بشتى الأساليب والوسائل، لذلك فإن أية حضارة، أو ثقافة، تفتقد النزوع الإنساني، وتقوم على

العرق، أو الجنس ، أو اللون ، أو الطبقة ، هي حضارة تمييز وتعالٍ بطبيعتها - كما أسلفنا - الأمر الذي يقودها إلى الاعتقاد بأن البقاء مرهون بإلغاء الآخر، لذلك تصبح الطبيعة العدوانية، من أخص خصائصها، إن لم نقل: إنها في الأصل تقوم على الفكرة العدوانية، لأنها تنظر إلى الآخر نظرة دونية، وتحاول أن تصرعه، وتتغلب عليه، وهذا يستدعي استعماره، واسترقاقه، واستنفاد طاقاته، ليبقى صريعاً.

من هنا ، قلنا : بأنها لا تستطيع أن تعيش بدون عدو، يضمن تماسكها، واستمرارها.. فإن لم يكن لها عدو، فلتصنع عدواً.. وإن لم تستطع صناعة الأعداء، لاستمرار التعبئة والمواجهة، ترد سهامها إلى ذاتها، فتتآكل من داخلها، أو يتحول عدوانها إلى الداخل.

وفي ضوء ذلك، يمكن أن نفسر دوافع الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، كما نستطيع أن نفسر دوافع الاستعمار الحديث، الذي لم يختلف عن الحملات السابقة إلا بوضع الصليب، الشعار المستفز لعالم المسلمين.. ويمكن أن نفسر في ضوئه أيضاً، الحروب الكونية العالمية، التي جاءت من أخطر صور العدوان وأعظمها ضحايا.. هذا على مستوى الموقف العدواني من الآخر، ثقافة وحضارة.

فإذا ما جئنا إلى الموقف العدواني، على مستوى الذات، فنرى أن معظم الأنظمة الفاشية، والنازية، والديكتاتورية، ومؤسسات الاستبداد السياسي، كانت من إفرازات الحضارة الغربية، ومواليدها الشرعيين، ولا يزال العالم يذكر نماذج المآسي الإنسانية، من أمثال: موسليني، وهتلر،

وستالين، وفيرديناند، وإيزابيلا، ومحاكم التفتيش، وفرانكو، وغيرهم.. كما لا يزال يذكر مذهب ميكافيللي الذي يمثل الأساس الثقافي والفكري لحضارة الصراع الغربية.

ونحب أن نوضح أن إصابات العدوى التي لحقت بمؤسسات الحكم في العالم الإسلامي، من حضارة الغرب العنصرية، والتي جاءت بسبب الانسلاخ عن الإسلام، والعدوان له، وأفرزت نماذج لا علاقة لها بسماحة الإسلام، وعدالته، وإنسانيته، هي دخيلة على الحضارة الإسلامية، التي تعتبر الاعتراف بالآخر، وحقه في حرية العقيدة، والعبادة، والعمل، والاختيار... دين من الدين.

وخلاصة القول : إن حضارة الغرب ، هي حضارة القوة والصراع، وتسلط الإنسان على الإنسان، ولو بدت على غير ذلك، بسبب التضليل الإعلامي.. إنها حضارة جباية، وحقد، وعدوان، والتاريخ والحاضر يعتبران شاهد إدانة على ذلك في مواقع متعددة.. بينما نرى الحضارة الإسلامية، حضارة إنسانية.. حضارة رحمة، وحب، وهداية، واحتساب، واعتراف بالآخر، وليست حضارة حقد وصراع.. هي حضارة الإنسان، التي تدعو إلى الحوار على كلمة سواء، وتعتمد الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتتنكر للإكراه في الدين، وتبتغي إلحاق الرحمة بالعالمين، لأن الناس، كل الناس، هم محل الخطاب السماوي.. والقوة في الإسلام، إنما تشرع حتى تُحمىٰ حرية الاختيار وتحقيق إنسانية الإنسان.

ونعتقد أن الحضارة الغربية، وإن استطاعت بأشيائها، وقوتها، أن تطفو

حضاريًّا، وتكسب بعض الجولات في الصراع الحضاري، إلا أن العبرة دائمًا بالعواقب، والمآلات، وليس بالنتائج القريبة، فكثيراً ما حمل لنا التاريخ، دلالات حضارية، على أن الأفكار والعقائد، تبقى أقوى من الأشياء والسياسات، وأن قيم المغلوب عسكريًّا، كانت أقوى من عسكر الغالب، وأن الحضارة الإسلامية، هضمت الكثير من الموجات، والاجتياحات الاستعمارية العدوانية، وانتهى الغالب إلى اعتناق حضارة المغلوب، وهذا ما لا نراه إلا في تاريخ الحضارة الإسلامية، لأنها حضارة الفطرة، حضارة الإنسان.

وقد يكون من أخطر إشكاليات الصراع الحضاري، التي يعاني منها عالم المسلمين اليوم - إضافة إلى وجود العلمانيين، والحداثيين المرتهنين لحضارة الآخر، بسبب تشكيلهم الثقافي، وتاريخهم التعليمي، ونظامهم المعرفي، الذين يشكلون طلائع متقدمة، للحضارة الغربية في الداخل الإسلامي، ويفعلون فعلهم في الإفساد، والتخريب، لصالح الغرب - هو في أنظمة الاستبداد، وما يلازمه من القمع السياسي، والظلم الاجتماعي، التي وجدت لصالح الغرب، بحيث أصبحت عوامل الطرد للطاقات المتميزة، والخبرات، والسواعد، والأموال، متوفرة في معظم بلاد العالم الإسلامي، إلا من رحم الله، وبذلك يدمر المسلمون طاقاتهم، ويكسرون أسلحتهم، ويكرسون تخلفهم بأنفسهم، أو بمعنى آخر: يخربون بيوتهم

بأيديهم، في الوقت الذي نرى فيه، عوامل الجذب، والإغراء بالهجرة، متوفرة في مجتمعات الحضارة الغربية.

ونستطيع أن نقول : إن خيرة الطاقات الإسلامية، اليوم، في العلوم التطبيقية، والإنسانية على سواء، مسخرة لخدمة الحضارة، والتقدم، والتحكم، والسيطرة الغربية.

إن كثيراً من الجامعات ، والمعاهد ، ومراكز الدراسات ، والمخابر، والشركات، والمؤسسات المالية، والاقتصادية الغربية، تتوفر على أفضل الطاقات الإسلامية، وتتقوى بها. ويُخشى أن تفتقد هذه الطاقات والخبرات، انتماءها، شيئًا فشيئًا، بسبب أجواء الإرهاب السياسي، والفكري، في معظم بلاد عالم المسلمين.. وكم يبدو الأمر مذهلاً، وخطيراً مستقبلاً، إذا أدركنا أن الهجرة لم تعد تقتصر على الأدمغة المتميزة، والسواعد القوية، والخبرات المقدورة، وإنما تتجاوز ذلك إلى هجرة الأجنة في الأرحام.. إنها قمة المأساة من الناحية الحضارية، أن يسعى الكثير من أبناء العالم الإسلامي المنكوب بأهله، أن يستولدوا نساءهم في ديار الحضارة الغربية، لاكتساب الجنسية والمواطنة، هناك، حيث يجد الإنسان نفسه، ولو وهمًا، يستمتع ببعض حقوقه، ويشعر بإنسانيته المفقودة هنا.

وتزداد محنة المسلم ، وفتنته ، عندما يرى، أن ما يتمتع به من الحقوق والحريات، وسيادة النظام والقانون، في بلاد الغرب، مفقود تمامًا في العالم الإسلامي، وأن ما يقوله، ويمارسه، من الحرية، في الدعوة إلى الإسلام، في المراكز، والحدائق، والشوارع، والجامعات، ووسائل الإعلام ـ على الرغم

من أن هذه الحرية، الواقعة تحت السيطرة، بدأت تُواجه اليوم بالنزعات العنصرية، التي تعبر عن طبيعة وحقيقة الحضارة الغربية - لا يمكن قوله وممارسته، في كثير من مساجد العالم الإسلامي التي تحكمها أنظمة الاستبداد السياسي، ويفوته أن هذا يشكل قمة الصراع، والاستلاب الحضاري، والغزو الثقافي.

فإذا عجز عن تجاوز الصورة، إلى إدراك الحقيقة، وتجاوز النتيجة إلى فهم المقدمة، وأدرك أن حضارة الغرب، التي تتيح له أقداراً من الحرية، وحقوق الإنسان - لا تخرج عن السيطرة بحال من الأحوال - وأن الغرب الذي يستقبله مهاجراً، أو لاجئًا سياسيًّا، هو الغرب نفسه، الذي يدعم أنظمة الاستبداد، والقمع السياسي، في كثير من بلدان العالم الإسلامي، ويخوّف من عودة الوعي الإسلامي، ويغري باستئصالها، ويمد الأنظمة، بالخبرات، والأدوات، والمعلومات، لتكون في مواجهة الأمة.. إذا عجز عن إدراك هذه الحقيقة، استلب حضاريًّا، وأصبح رهينة، واقعًا في العمالة الثقافية.

حيث لا بد أن ندرك أن اليد التي تمنح المسلم، الحرية هناك، هي اليد نفسها، التي تمنعها هنا، ليتم الاستقطاب، والتحكم من جانب، ولإعطاء دليل عملي واقعي، على أن حضارة الغرب، بعطائها، تتميز عن حضارة المسلمين، فتهفو النفوس إليها، وتهاجر الأجنة إلى بلادها.

ولقد بلغت المحنة مداها ، وأخذت الفتنة أبعادها المرسومة، حتى عند بعض المفكرين والأفراد الممتازين - إن صح التعبير - الذين بدأوا يشيدون بقيم الحضارة الغربية، واحترامها للإنسان.. ولم يقتصر نقدهم، على واقع

المسلمين البائس، بسبب انسلاخهم عن الإسلام، لا بسبب انتمائهم له، والتزامهم به، وإنما تجاوزوا إلى نقد التاريخ الإسلامي، ولم يعودوا يروا فيه إلا النقاط السوداء، والممارسات الشاذة، وبدأوا يعيشون عقدة مركب النقص، أمام قيم الحضارة الغربية، وآلياتها، دون أن يبصروا صورتها الحقيقية، أو وجهها الآخر، على يد عملائها وسدنتها في العالم الإسلامي.

وأعتقد أن التحكم والسيطرة على العالم الإسلامي، واستنفاد طاقاته، لم تعد تقتصر على إقامة الحراسات، والمخافر، لمصلحة الحضارة الغربية، ودعم أنظمة القمع والاستبداد السياسي، والتمكين لها، وامتصاص خبرات، وطاقات، وسواعد المسلمين، وإنما تجاوز ذلك، إلى محاولات التحكم بالمستقبل، حتى لا تقوم للمسلمين قائمة.

إنها مرحلة التحكم بالأرحام، والحد من النمو الديموغرافي للمسلمين، وذلك بإقامة مؤتمرات للسكان، والتمهيد لتشريعات، وتوصيات، الغاية منها الحصار السكاني، بعد أن تحقق الحصار السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، حتى لا تُخرج الأصلاب، وتحتضن الأرحام، من يفكر بالخروج عن السيطرة في المستقبل.

ومن ميادين الصراع الحضاري الخطيرة، التي لا بد من التنبه لها أيضًا، قضية الابتعاث، وتلقي العلم والثقافة، في معاهدَ، وجامعات الحضارة الغربية، ذلك أن الإلقاء بالطلبة في محاضن الحضارة الغربية، دون توفير التحصين الثقافي المكين، والوعي الحضاري اليقظ، ودون تزويدهم بدليل التعامل مع قيم الحضارة، وفهمها، وحسن قراءتها، سوف يجعل

منهم ضحايا، قد يعودون إلى بلادهم، مشوهين حضاريًّا، أو قد ينتهون، إلى الاستيطان، يصبحون طاقات ودماءً في شرايين الحضارة الغربية، ويستوي في ذلك الذين يذهبون لتلقي العلم التجريبي، والذين يدرسون الإنسانيات، وإن كانت دراسة الإنسانيات أشد خطراً وأعظم أثراً .

أما الكثير من الذين يذهبون لأقسام الدراسات الشرقية، وأقسام الشريعة، والدراسات الإسلامية، التي أقامها الغرب لأداء رسالة معينة، دون تحصينهم بمعرفة الوحي، وبناء مرجعيتهم بضوابط الشريعة وعزائم الإيمان، بشكل صحيح، فسوف يكونون الأخطر، في آليات الصراع الحضاري، لأنهم ينقلبون إلى ألغام في جسم الأمة، قابلة للانفجار في كل لحظة، حيث يتحدد دورهم، في نقض الأسس، وهدمها، وتوهين القيم، والتشكيك فيها، لصالح الآخر، ذلك أن العدوان على الإسلام، والتحدي والاستفزاز من الخارج، يجمّع الطاقات، ويقضي على الرخاوة، ويقوي العزائم، ويبعث الروح الحضاري.

إنه المحرض الحضاري، الذي يساهم باسترداد الذات، والاحتماء بالقيم، وتجديد الانتماء، وتمتين الالتزام في معركة المواجهة.. وقد تكون المشكلة ، كل المشكلة هنا، هي في تدمير البيوت، بأيدي أهلها.

والحقيقة الأخرى، التي لا بد أن نعرض لها، في إطار الحوار، أو الصراع الحضاري، هي قضية اللغة، وما تحمل من دلالات، تعتبر أوعية للتفكير، وليس مجرد وسيلة للتعبير، وما تحمله وتعبر عنه، من حالات نفسية وشعورية، وما تمتلكه من مصطلحات، ومفاهيم هي خلاصات لعقل الأمة،

وتجاربها وخبراتها. وليس من قبيل المجازفة القول : إن اللغة هي أداة الفعل الحضاري، ووسيلة التكوين، والتشكيل الثقافي.. إنها وعاء الهوية، وأداة التواصل بين الأجيال.. هي التراث، والحاضر، والمستقبل، لأنها طريقة الفهم للتراث، والتاريخ، والقيم.. لهذا كله، كانت ولا تزال، مستهدفة من الآخر، في عملية الصراع، والاستعمار، والحوار الحضاري، فالأمة التي تُلغي لغتها في المعهد، والجامعة، والمدرسة، والكتاب، والمصدر، والمرجع، هي أمة متوقفة حضارياً عن الامتداد والإبداع، ومهزومة حضارياً، إن صح التعبير، مهما حاولنا التخفيف من آثار ذلك، والادعاء، بأن اللغة هي وسيلة تعبير، وتفاهم فقط، لا علاقة لها بالتفكير، أو الفعل الحضاري.

ولا يتسع المجال هنا، أن نعرض لدور القرآن، في حماية اللغة العربية، ولماذا أنزل بالعربية، ودور سلامة اللغة، في إدراك مدلولات النص القرآني، وعمليات المسخ، والتشويه، والتحريف، التي لحقت بالنصوص المقدسة الأخرى، والتمزق، والتبعثر الديني، والعقيدي الذي نتج عن ذلك، بسبب سوء الترجمات التي اتسعت لسوء المقاصد والنوايا.

وسوف تستمر هزيمتنا، ويتوقف نمونا، ويغيب إبداعنا، وتحاصر رسالتنا، إلى العالم، طالما أننا نفكر بأوعية الآخرين، ونصب أفكارهم في عقولنا، من خلال لغاتهم.

وتبقى قضية على غاية من الأهمية.. فإذا تقرر لدينا، أن الحوار الحضاري، هو سنة من سنن الله في الكون، له مقوماته، وآلياته، وأدواته، وأهدافه، وغاياته، وأسلحته المتعددة، فإن فهم إدارة الحوار، وكيفيات

التعامل معه، لا يقل أهمية عن امتلاك أدواته.. فكثيراً ما تستنزف الطاقات، في معارك دفاعية، غير مجدية، بل خاسرة، لأنها استنفاد للطاقة، واستهلاك لها، على حساب مواقع إنتاجية أخرى.. فإذا استغرقتنا المواقف الدفاعية، في معركة الصراع الحضاري، وأصبح كل فعلنا، الرد على التهم، التي توجه إلينا، دون وعي بآلية الصراع، والتحكم بإدارته، نتحول من أن نكون أحد أطراف الحوار، المستخدمين لأدواته، إلى أداة للحوار، وميدان له، ونخضع لتحكم الآخر، بتفكيرنا، ونشاطنا، بحيث يصبح الزمام بيده، فيكفي أن يلقي إلينا بالتهم، التي يريد، ويحدد الزمان الذي يختار، ومكان المعركة التي تناسبه، ونحن ما علينا إلا رد الفعل، والاستجابة المرسومة مسبقاً، وبذلك يتحكم بساحة تفكيرنا، وبنوع نشاطنا، ومجال فعلنا، ويفقدنا زمام المبادرة، وتصير حياتنا، رد فعل عفوي، بعيداً عن الفعل المختار.

إن عمليات الاستهداف، ولائحة الاتهامات للإسلام اليوم، ومحاولات إدانة صحوته، وشل حركة العاملين، ومحاصرتهم، باسم الأصولية، والإرهاب، واعتبار الإسلام هو العدو الحضاري للغرب، وتوظيف كثير من الأنظمة، والأفراد، والمؤسسات، يتطلب من المسلمين استيعاب الهجمة، بعيداً عن الانفعال، والاستجابة العفوية للاستفزاز، والصبر، والتبصر، بكيفيات إدارة الصراع، لتفويت غرض الآخر، والتحول من أن نكون موطناً لأفكار الحضارة الغربية، وترجمتها إلى حياتنا، ومقاربة قيمنا بها، إلى نقل كنوز، وروائع، وقيم الحضارة الإسلامية، إلى

الآخر، لإلحاق الرحمة به، واستنقاذه من التشويه العنصري والقومي، وبذلك نسهم فعلاً في الحوار الحضاري المثمر، وبناء حضارة إنسانية، يكون فيها الأكرم هو الأتقىٰ.

إن الحضارة الغربية التي انتصرت بأشيائها وقوتها، وسقطت بقيمها وإنسانها، يرتفع صوتها اليوم، وترفع شعارها يوميًّا، على عالم المسلمين، وكأني بها تقول للمسلمين المهزومين: «اعل هُبل»، مستخدمة في ذلك وسائل إعلامها.. ولنا أن نتصور مدى الخطورة المستقبلية، إذا لم نكن في مستوى إسلامنا، وعصرنا، حيث من المتوقع، في هذا العام، أن يصل عدد قنوات الإرسال التلفزيوني، الفضائية إلى نحو ١٤٠ قناة، تعمل ٧٥ قناة منها على مدار الساعة، أكثر من ٩١٪ منها تبثها شركات أو شبكات من أوروبا الغربية، وأمريكا الشمالية، واليابان، وأستراليا، والعشر الباقية لا تخرج عن أن تكون رجع الصدى.

ولا شك أن هذا الإغراق الثقافي والإعلامي، سوف يوقع في الداخل الإسلامي الكثير من الضحايا، ممن ينقلبون على المفاهيم، ويقررون الانسلاخ عن هذا الدين، في مناخ القهر الحضاري، ومحاولات التطبيع للهزائم.. لكن العالم الإسلامي، المهزوم بأشيائه، سوف يستعلي بقيمه وأفكاره، ويواجه الغزو الذي يرفع شعار: «أعل هبل»، بشعاره: «الله أعلى وأجل»، قولة أهل أُحد.. وأن الهزيمة والاستفزاز والقرح، الذي يصيب المسلمين، سوف تؤدي إلى الاستجابة لله وللرسول، ويتحقق الخلود

لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، ولقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٢).

وتنبعث الروح الإسلامية من جديد.. فالاستجابة قادمة، على مستوى عالم المسلمين، والبشائر قائمة، إن شاء الله.

والكتاب الذي نقدمه اليوم، يعتبر إسهامة من الإسهامات البارزة في مجال الصراع الحضاري، سواء فيما يفتح من نوافذ على رؤية الآخر للإسلام، والمسلمين، أو بما يكشف من نوايا مبيتة لعالم المسلمين، وصناعة للعداوات، أو بما يقدمه من إلقاء الضوء على بعض جوانب حضارة الإسلام، الأمر الذي يرشحها للصمود في معركة تحقيق الذات وحمايتها، كما صمدت في الماضي، كما يرشحها لأن تكون حضارة الإنسان البديلة، بما تمتلك من القيم السماوية السليمة، التي لا يد فيها للإنسان، ولا مجال معها لتسلطه على الإنسان الآخر، وبهذه المساواة أمام الخالق الواحد، التي تعتبر روح الحضارة الإسلامية، سوف يتحقق التوحيد، وتتوحد العبودية، فإن حضارة الإسلام هي التي سوف تشكل البديل المأمول، والملاذ الآمن، للبشر جميعًا، حيث تتحقق المساواة بين الخلق جميعًا، وتسقط الفوارق، التي كانت سببًا للشقوة والحياة الضنك.. والحمد لله رب العالمين.

مقدمــــة

باسمه سبحانه أبدأ هذا الكتاب، مصليًا ومسلمًا على أشرف المرسلين وخاتم النبيين محمد المصطفى الأمين ﷺ ورضي الله تعالى عن الأنبياء والرسل من قبله وهدى المسلمين إلى سواء السبيل .. وبعد ،

فحين هداني الله إلى وضع هذا الكتاب الوجيز ، عن مراجع الحضارة الإسلامية، ومواقع قوتها الفكرية، كنت في الواقع أفكر في مستقبل تلك الحضارة، وما اعتمادي على الماضي، إلا بقصد توظيفه لخدمة المستقبل.

ولعل القارئ المعاصر ، يعلم كما أعلم – وهو يعيش معي محاور هذا الكتاب، في حرارته السياسية والثقافية – أن تحولات عميقة تطرأ يوميًّا على عالمنا، وأن هزات عنيفة تغيّر خريطة الكون، وأن الأنباء تتلاحق وتتسابق صباح مساء، لتعلن عن تغيرات جذرية في السياسة والاقتصاد والعلم والثقافة، يساعد على الإحساس بها، ذلك السيل الطامي من المعلومات والأخبار، بسرعة انتقالها الآني عبر الأقمار الصناعية، من منطلقاتها، بأي مكان في الدنيا، إلى أجهزة التلفزيون لدينا، وهي في كل بيت، كأنها القريب الحميم، أو الصديق المقيم.

فالقارئ المعاصر عايش انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، وشهد مذهولاً عام ١٩٨٩م سقوط جدار برلين، تحت أقدام الشباب الألماني، وإعدام آخر ديكتاتور شيوعي شاوشيسكو في بوخارست عام ١٩٩٠م، وعاش حرب

الخليج عام ١٩٩١م، وحضر انهيار الاتحاد السوفييتي، وانفلاق جمهورياته كالحب والنوى، وانتهاء الحرب الباردة، وتعملق الولايات المتحدة وحدها، وانتصار الثورة الإسلامية الأفغانية، على الطاغوت الملحد، واتساع المد الإسلامي كعقيدة استرجاع الهوية في أغلب البلدان المسلمة، وأخيراً انتشار العدوان الصليبي الصهيوني المشترك على الأمة الإسلامية، وبخاصة في رافديها الهامين فلسطين والبوسنة.

تلك في عجالة خاطفة، بعض زلازل هذه العشرية، ارتجت من هولها أركان عالمنا بأسره، وفرضت على المجتمع الدولي استراتيجيات جديدة، ورؤى فكرية مبتكرة، فاضطر العقل هنا وهناك، إلى محاولة القراءة في كتاب الأحداث الطارئة، وفك طلاسم الوضع الراهن، باستنباط أصناف مستحدثة من اللغة، والسياسة، والثقافة، والفلسفة، والفن، والعلوم.

وهكذا نشأت تطورات عديدة، ومتناقضة لمصير الإنسانية، على ضوء اليقظة العنيفة للقوميات، والهويات، والثقافات، وحاولت الحضارة المسيحية إنقاذ هيمنتها على العالم، من التصدع، فاكتشفت أن القيم الرأسمالية وما يصحبها من تحررية اقتصادية وسياسية... يمكن أن تشكل مستقبل الإنسانية قاطبة، من هنا جاء كتاب الأمريكي الياباني (فوكوياما) تحت عنوان: نهاية التاريخ.

ونهاية التاريخ لدى هذا المفكر، هي نهاية الحرب الباردة، وانتصار الرأسمالية والتحررية، بصورة حاسمة وأبدية، على الشيوعية المنهارة.

أي في الحقيقة انتصار الغرب على الغرب، لأن الرأسمالية والشيوعية، كلاهما ثمرة من ثمار الفكر الغربي.

ألسنا اليوم، ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين، بإزاء هيمنة نصرانية يهودية، تحت ستار أحادية القوة الأمريكية، التي لا تقهر، وتحت شعار انصهار الحضارات كلها في قالب الغرب الظافر المسيطر؟ ألسنا نواجه كمسلمين، محاولة تاريخية للعودة للامبراطورية الواحدة، التي لا تغيب عنها الشمس؟ وريثة الامبراطورية الرومانية... ثم البريطانية... بعد سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية؟

نعم. إن انهيار الاتحاد السوفييتي، أعلن عن قيام قوة عاتية، لم يكن انتصارها مثل سائر انتصارات القوى التقليدية، عسكريًّا، بل كان انتصارها بدون حرب، مثلما قال الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون(١). ولم تحسم المعركة بين العملاقين في ساحة وغى، بل إنهما لم تتصادما مباشرة في أية أزمة حدثت، وأكثر من ذلك فقد كانت أمريكا والاتحاد السوفييتي حليفين في الحرب الكونية الثانية، ضد ألمانيا الهتلرية، وقوى المحور، وانتصرا معًا وجنبًا إلى جنب، واقتسما الأرض، إلى مناطق نفوذ معروفة معلومة.

وجاءت هزيمة المعسكر الشيوعي ثقافية وسياسية، أو هي كما نسميها: هزيمة حضارية.

ضرب السوس في قلب الشجرة العجوز، وخربها من الداخل، وجدت

---

(١) عنوان كتاب الرئيس السابق نيكسون: انتصار بلا حرب.

القلعة المحروسة نفسها مشتعلة من خلف أسوارها. سقطت الأيديولوجية القائمة على الإلحاد، وإلغاء الحريات، وانعدام المبادرة، ومنع الملكية الفردية، تحت وقع الإعلام الغربي والثقافة الغربية، حتى تشكل وجدان الشعوب السوفيتية والأوروبية الشرقية على الشوق للمدينة الأمريكية الفاضلة، كحلم... كمثل أعلى... كجنة موعودة.

نعم كان الإعلام الأمريكي والأوروبي، منذ العشرينيات، متجهًا للرأي العام في الجمهوريات السوفييتية، وأوروبا الشرقية، يضرب له الأمثال بحياة المواطن الأمريكي والأوروبي، ويظهر له تلك المجتمعات، قمة من قمم النجاح، والسعادة، والرفاه، والسؤدد، والاستهلاك، والحرية، والمبادرة.

وشاءت الثورة التكنولوجية والإعلامية والاتصالية، أن تتقهقر الحدود الجمركية القديمة، وأن تنهار الجدران، وتذوب مساحات الجليد، أمام الصورة بالقمر الصناعي، عبر شاشات التلفزيون، وشرائط الفيديو، فهجم المثل الأعلى الأمريكي، على المدن السوفييتية والأوروبية الشرقية، كما يهجم نور الشمس الساطعة على السجون، والمحتشدات المظلمة الحالكة.

ولم تجد تلك الإمبراطورية الشيوعية، ما تقاوم به هذا الغزو، سوى يقظة القوميات، المخدرة منذ سبعين سنة. ثارت الأديان واللغات والأعراق، وحلت حروب أهلية عاتية، محل الوفاق الخادع، والسلام الهش، والصمت المفروض.

وبدأ العملاق الروسي يحرك جثته الحية، من تحت أنقاض الخراب

الشيوعي. هو أيضًا يتطلع بدوره للإمبراطورية القيصرية. تلك التي ظل يحملها في قلبه وفي كتبه ألكسندر سلجنتسين، الحائز على جائزة نوبل، والمنفي في أمريكا، والتي بدأ يعبر عنها فلاديمير جيرينفسكي بتطرف، وبوريس يلتسين بتكتيك.

بدأ العملاق الراقد مثل أهل الكهف، ينفض الغبار عن وجهه ويديه ويستعيد أسماء مدنه، ورموز عظمته، وآيات ثقافته، وأطلق سراح تلك الجمهوريات، التي كانت تدور في فلكه، لتواجه كل منها مصيرها، كما أطلق عقال شعوب أوروبا الشرقية في نوع من الذهول المدوخ... ذهول السجين الذي خرج فجأة من زنزانته، ولم يتعلم بعد طريقة استعمال الإرادة والحرية، بل لم يفقه بعد طريقة استعمال حواسه الطبيعية.

وفي هذا الخضم المتلاطم من الثورات والتحولات، فتح المسلمون أعينهم على عالم جديد، كأنهم يكتشفون جزيرة حي بن يقظان، وعرفوا أن الأمر جلل، لأن عليهم أن يصمدوا بإزاء العواصف الهوجاء، وأن يجوسوا خلال ركام الأيديولوجيات، وتزاحم الهيمنات، حتى ينجو بإسلامهم، ويفرضوا هويتهم، ويعيشوا عصرهم، دون الذوبان في ذلك الجهاز الأعمى الصاهر المسمى بالنظام العالمي الجديد، الذي لم توضع أسسه معهم... بل وضعت ضدهم.

أفاق المسلمون على التحديات الجديدة المتربصة بمصالحهم، وهي تحاول التخطيط لمصادرة مصيرهم، وإخراجهم من حركة التاريخ، فتنادوا متواصين

بالحق، من أدنى الأمة إلى أقصاها، وإنك لتقرأ أصداء ذلك التواصي، فتدرك أن الضمائر استنفرت، وأن العقول شحذت، وأن الساعة دقت، لتجاوز مرحلة التواصي بالحق، إلى مرحلة العمل الصالح، بتنسيق الجهود المتباعدة، والخروج على العالم باستراتيجية إسلامية متكاملة، تكون الجذع المشترك لتلك الصفوات الواعية في ديار الإسلام كلها.. وما أحوجنا اليوم إلى ما يجمع، وما أغنانا عما يفرق.

إن ما يجمعنا هو المنقذ من الضلال، إنها تلك الروح الحية المتوهجة من سراييفو بقلب أوروبا، إلى تمبكتو بقلب أفريقيا، ومن سمرقند بقلب آسيا، إلى نيويورك، حيث ينشط المسلمون السود بقلب أمريكا، ومن الدوحة بقلب الخليج، إلى نواكشوط بالصحراء المغاربية، ومن معهد الثقافة الإسلامية ببكين عاصمة الصين الشعبية، إلى مركز الدراسات الإسلامية بواشنطن عاصمة الولايات المتحدة، ومن إسلامبول إلى الألف جمعية إسلامية النشيطة في مدن أوروبا الغربية. إنها الأشواق والطموحات والتطلعات نفسها، تهز الضمائر وتحرك السرائر.

فانظر إلى المسلم المعاصر أينما كان. في أندونيسيا أو في السينغال، أو في أفغانستان، أو في الصومال، عربيًا كان في مكة المكرمة أو سلافيًا في مدينة غوراجدة البوسنية، أو أفريقيًا في لاغوس النيجيرية، أو آسيويًا في مانيلا الفلبينية. لاحظه وهو يشاهد مجازر ساريبفو، أو عدوان الصهاينة على مسلمي فلسطين، على شاشات التلفزيون، تكتشف تلك الوحدة المثالية الرائعة في رد الفعل، فتقسم أنك بإزاء ظاهرة حضارية مدهشة، منعشة،

اسمها الروح الإسلامية، مهما اختلفت الأعراق والألوان والجنسيات ومعدلات النمو، ومستويات الدخل الفردي. إنها الروح الإسلامية، حركتها الثورة الاتصالية الحديثة، وشحذتها هذه السرعة المدوخة في وصول الأخبار عبر الأقمار...

كانت تلك الروح الإسلامية كالجمر المتوقد تحت الرماد. كانت ساخنة حارة، لكنها مخفية، ولعل الناس من حولها حسبوها ميتة، ركاماً حطاماً، بينما هذا العصر أحياها، بفضل آنية انتقال الصورة، فعبارة الله أكبر التي يطلقها المجاهد الشاب من مجاهدي حماس في مدينة الخليل بفلسطين المحتلة، تدوي في اللحظة نفسها، بفضل (سي.إن.إن) الأمريكية، في عائلة سودانية بأم درمان، وعائلة تونسية بالقيروان، وعائلة مسلمة في تركستان. في الثواني نفسها التي يرفع فيها الأذان في مدينة بيهاش البوسنية، عبر قعقعة المدفعية الصربية الصليبية، تكون أصداؤه وصلت الجزائر وبيروت وإسلام آباد.

وأنا ذكرت محطة (سي.إن.إن) الأمريكية عن قصد، لأقول: إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعل تلك الوسائل المعدة ضدنا، سلاحاً في أيدينا، وأراد أن يحول بعملية إلهية، بعض الاكتشافات التكنولوجية الموجهة لصدورنا، إلى جنود لا نراها، تعزز صحوتنا، وتيسر وحدتنا، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

وسيكتشف القارئ، وهو يتابع فصولي، أن الحافز على تحرير هذا الكتاب، هو الإجابة على الحيرة الملحة، التي تظهر في كتابات المسلمين وغير

المسلمين وهم يتساءلون عن منزلة الإسلام في عصر أعلنه الغرب – من خلال صمويل هنتينجتون[1] – عصر صراع الحضارات، بعد نهاية صراع المصالح، وصراع الأيديولوجيات.

فما هو سلاحنا الثقافي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي في هذا الصراع المقبل؟ وهل أعددنا لخوضه ما استطعنا من قوة فكرية وثقافية؟

وإنني توخيت بقدر الإمكان مجادلة أفكار الآخرين بالتي هي أحسن، مفضلاً إقامة البرهان على تشنج العدوان. راجيًا ما يرجوه المسلمون، وهو أن يكون بين حضارتنا والحضارات الأخرى حوار هادئ مستقيم، لا صراع عنيف مستديم. وإن النصر الذي ننشده للمسلمين في هذا الصراع الحضاري، ليس نصراً عسكريًّا، فنحن نأبى أن نختزل مجد الإسلام في قوة حربية، وهو دين اتخذ السلام منهجًا، والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، كما أن النصر الذي نأمله ليس طغياناً على الحضارات الأخرى، أو إرادة هيمنة على شعوب سوانا بقدر ما هو دفاع مشروع عن أصولنا الروحية، وثوابتنا الحضارية، حتى نعتمدها في تحديد مصيرنا، وصيانة استقلالنا، وإنشاء تضامننا.

ويعلم الله جل وعلا أننا قصدنا بهذا الكتاب، إثارة أقلام جيلنا المسلم من أهل العلم والفقه والمعرفة، حتى نسهم في إقرار فضيلة الحوار الذكي،

---

(١) صمويل هنتينجتون هو أستاذ العلوم السياسية ، ومدير مؤسسة جون أولين للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفرد ، نشرت محاضرته بعنوان : (صدام الحضارات) ضمن دراسة مطولة بعنوان : (المصالح الأمريكية ومتغيرات الأمن) ، في مجلة الشؤون الخارجية ، يونيو ١٩٩٢م ، وهي تضع الغرب بإزاء الإسلام بصورة خاصة ... وعنيفة .

الحي، حول شؤون حضارتنا، من مناظير مختلفة، وبموازين متباينة، فالحق لا يتبين من الباطل، ولا الغي من الرشد، إلا متى خضع الموضوع للنقاش الحر الكريم، بما يخدم الإسلام، وينهض بالمسلمين.

ويحضرنا ما رواه سعيد بن المسيَّب عن علي رضي الله عنه قال: قلت يارسول الله، الأمر ينزل بنا، لم ينزل فيه القرآن، ولم تمض فيه منك سنة؟ قال: **«اجمَعُوا له العالمين - أو قال: العابدين - من المؤمنين، فاجعلوه شورىٰ بينكم، ولا تقضوا فيه برأي واحد»**[1].

إن آفة الحضارة الإسلامية في عصرنا الراهن، القضاء برأي واحد، ومخالفة رسول الله ﷺ في هذا الحديث، فقد تجاوزت الدراسات الإسلامية، إلى درجة جعلت كل صاحب رأي يريد أن يقضي به، دون إجماع العالمين أو العابدين من المؤمنين، ودون جعله شورى بين الناس.

باتت قلوب المسلمين شتى من جراء انعدام فضيلة الحوار، ولعل أخطر ما يهددنا، هو أننا نتقدم نحو الحضارات الأخرى المتكاتفة المتكافلة، ونحن ملل ونحل، ضرب أعداؤنا أعز ما يربطنا: ديننا.. عندما أفرغوا استقلالاتنا من محتواها الحضاري، فلم تنجل جيوشهم الدخيلة عن أراضينا، إلا بعد أن عششت ثقافاتهم البديلة في ضمائرنا، ولم تغادر الإدارة الصليبية المباشرة مجتمعاتنا، إلا بعد أن فرخت بيضتها الصهيونية في وجداننا.

---

(١) وارد في أعلام الموقعين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط ٢، ١٩٧٧م، ج ١ - ٢، ص ٦٥ .. قال ابن القيم: هذا غريب جداً.

فكيف نحاور الحضارات إذن بدون أن نعيد قراءة مراجعنا الأصيلة، حتى نتفق جميعًا على الأصول، مهما اختلفنا حول الفروع. وهذا الكتاب أردته خطوة بسيطة على هذا النهج القويم، في عالم متغير متحول، يموج من حولنا يوميًّا بالأفكار والاكتشافات، والتحديات، وثورة الاتصالات.

وأنا موقن أشد اليقين، أن هذا الجهد عسير، وأن الفوز بالمقصد نادر، ولكن الإيمان بالله سبحانه يُعد المحرك الأكبر للهمم، والحافز القوي للإرادة. فاتكالي عليه، وإنابتي له، فيما اعتزمت من عمل.

المؤلـــف



أين موقعنا من صراع الحضـارات ؟

عصرنا الراهن عصر تحولات مدوخة ومثيرة وسريعة. عصر اتسم بالثورة التكنولوجية والاتصالية العارمة، التي لم تستطع مجاراتها ثورة أخلاقية ودينية وروحية معاصرة لها. العلم تطور بشكل مذهل، مما جعل الإنسان يكاد يفقد قواعده الروحية أمام اجتياح المادة. كأنما العالم اليوم منقسم إلى جنوب متخلف اقتصاديًّا وصناعيًّا وتكنولوجيًّا، وإلى شمال متخلف روحيًّا. وفي كلتا الحالتين فإن التخلف يعني الشقاء وانعدام الشعور بالأمان.

إن الجنوب المتخلف ماديًّا، والشمال المتخلف روحيًّا، يتعايشان في عالم واحد، تربط بينهما اتصالات حينية متكاثرة باستمرار، ويدخل العالم تدريجيًّا مرحلة تتصادم فيها الحضارات والثقافات، وتتحارب أنماط الحياة. الجزء المتخلف روحيًّا، بلغ أقصى النعم المادية، لكن الروح خواء. لم تصمد لديه المعتقدات والمرجعيات والأصول الدينية والثقافية، فتحصن بالمؤسسات السياسية الدستورية، تحميه من سطوة المجتمع التنين، بينما الجزء المتخلف ماديًّا استنجد بأديانه وقومياته وهوياته، يستنفرها في معركة بقاء: معركة حياة أو موت.

إن الصراع القادم بين هذين الجزئين لن يكون كما عرفناه – تقليديًّا بين المصالح والأيديولوجيات فحسب، بل أغلب الظن أنه سيكون صراعًا جديداً بين الحضارات مثلما أعلنه صمويل هنتينجتون[١] فهل سيكون النصر لهذا الجزء

---

(١) SAMUEL HANTINGTON في مقال شهير بعنوان : صراع الحضارات ، نشر في مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية FOREIGN AFFAIRS شهر حزيران ١٩٩٣م ، وأثار ضجة كبرى من الردود والتعليق ، منها عدد خاص من الهلال المصرية ، نوفمبر ١٩٩٣م .

أم ذاك؟ ثم إن هذا الصراع الكوني المعلن، ستدور رحاه بين جزئين معوقين: الأول معوق روحيًا، والثاني معوق ماديًا، أي أن الأول يفتقد الغايات، والثاني يفتقد الوسائل، حسب تعبير المفكر الفرنسي آلن توران(١).

ونحن المسلمين؟

أين موقعنا .. وهل أعددنا لذلك الصراع ما استطعنا من قوة؟

الإجابة تبدو بسيطة بدهية للوهلة الأولى، ولكنها متشعبة وصعبة، لمن يتعمق البحث فيما وراء الأحداث والمعطيات.

الإجابة البسيطة هي أننا ننتمي كأمة إسلامية، إلى ما كان يسمى بالعالم الثالث، أو ما يسمى حاليًا بالجنوب، أو البلدان النامية. فأغلب شعوب الإسلام وقبائله - ما عدا البوسنة والهرسك - تقع في آسيا وأفريقيا، وهما قارتان تقعان في الشطر الأقل حظًا من التنمية، والاكتفاء الذاتي والتصنيع، وهما مستهدفتان من الاستعمار والاحتلال، والاستغلال، والسلب، والنهب، على مدى قرون طويلة، كما أنهما تداولتا حضارات متميزة متعاقبة ثرية، ونشأت فيهما الأديان والثقافات، وتحركت المقاومات، وتبلورت الهويات. ونحن المسلمين بعض من هاتين القارتين، وفق الله فتوحاتنا الإسلامية إلى الامتداد على جزء هام من أوروبا منذ أول نزول للمسلمين بالأندلس سنة ٧١٠م في حملة طريف، وفتحها سنة ٧١١م على يد طارق بن زياد، بعد أن استقر الإسلام في أفريقية (القيروان).

ومن الجزيرة العربية انطلق الإسلام في المرحلة نفسها، أو قبلها بقليل، لنشر

---

(١) ALAIN TOURAINE في كتابه نقد الحداثة CRITIQUE DE LA MODERNITE عن دار فيار للنشر، باريس ١٩٩٢م.

رسالة القرآن على ممالك فارس وبيزنطة، ثم تم فتح السند وغنم الإسلام البنجاب وكابول (٧١٣م) ثم شرع المسلمون يفتحون جنوبي فرنسا (٧١٤م).

فانتماؤنا كمسلمين إذن انتماء مزدوج جغرافيًّا ، ولعلنا الحضارة الوحيدة التي تربط كحلقة وصل بين الجزء الأول والجزء الثاني. فالعالم الإسلامي الحالي يتحمل طبعًا قدره الجغرافي الصعب، لكنه محكوم عليه أن يعي قدره التاريخي الفريد. فالأمة الإسلامية تقع حضاريًّا بين هذا الجزء المتخلف روحيًّا، وذلك الجزء المتخلف ماديًّا، ورسالتها أن تقدم للإنسانية نموذجًا طريفًا وفذًّا من الحياة الصحيحة، تنصهر فيها الروح مع المادة في وفاق أمثل، وتمتلك فيها الوسائل دون التفريط في الغايات.

ليس هـذا حلمًـا !

لقد تحقق في مراحل عديدة من تاريخ الإسلام، والتقائه بالحضارات الأخرى، ونشأت دول مسلمة قوية تعددية - بالمفهوم الديني والعرقي والثقافي - متسامحة، متقدمة، ذات إيمان عميق بجوهر الشريعة، وكان سرّ عظمتها دائمًا، في قدرتها على التوفيق بين الروح والمادة، بين الوحي والعقل، بين الغيب والمحسوس، بين الغايات والوسائل.

وبهذه العبقرية الفريدة التي ينبوعها القرآن والسنة، أثبتت حضارة الإسلام قدرتها على صهر الثقافات الثرية الأخرى في بوتقتها الإسلامية، وأمامنا أمثلة تاريخية عديدة، مثل نشأة الدولة المسلمة في فارس منذ معركة القادسية (٦٣٣م)، ونواة الدولة المسلمة في مملكة بيزنطة منذ أن استولى معاوية على قبرص (٦٤٩م) واستقرار الدولة المسلمة في المغرب ببناء مدينة القيروان (٦٧٠م) ثم امتداد الفتح إلى الأندلس، وتكوين دولة مسلمة في

أشبيلية (٧١٢م). كل هذه الأمثلة تعتبر فرعية كأنها أغصان لجذع أصلي هو الدولة الأم، مركز الخلافة المؤتمنة على الأمة، وقد انتقلت من المدينة المنورة أثناء حياة الرسول ﷺ وخلفائه رضي الله عنهم، إلى دمشق أثناء الحكم الأموي، ومنها إلى بغداد على أيدي بني العباس، ثم ومنذ ٢٩ مايو ١٤٥٦م إلى القسطنطينية عاصمة الخلافة العثمانية، حتى ٣ مارس ١٩٢٤م، تاريخ إلغاء الخلافة الأخيرة وانتصار القوى النصرانية والصهيونية على آخر حصن جامع للمسلمين.

ونعود إلى مقال الكاتب اليهودي الأمريكي صمويل هنتينجتون، الذي يتوقع تطور صدام الحضارات خلال العقدين الأول والثاني للقرن الحادي والعشرين. فهو يتجاوز النظرية التي طرحها فرنسيس فوكوياما(١) المفكر الأمريكي الياباني الأصل، والقائلة بنهاية التاريخ عند الواقع الكوني الراهن، بعد انتصار قيم الغرب الليبرالية والديمقراطية، واختفاء الشيوعية.

إن (هنتينجتون) يؤمن مثل (فوكوياما) أن التاريخ مات ، والمقصود هنا هو تاريخ الحرب الباردة، والجدل القائم منذ سبعين سنة بين الاشتراكية والليبرالية، لكنه يعلن عن صراع جديد، لا بين العقائد السياسية، وإنما بين الحضارات، بل إنه يحدد مناطق التشابك الحالية، ويتنبأ بأنها ستتطور إلى ساحات صراع، بين أنماط حضارية متضادة، إن لم تكن تطورت بعد، مثل قضية البوسنة والهرسك، حيث يتقابل النموذج المسلم - وليس الإسلامي، فلكلا المصطلحين معنى خاص - بالنموذج الصربي الأرثوذكسي.

---

(١) FRANCIS FUKUYAMA مفكر أمريكي من أصل ياباني ، كتب مقالاً مثيراً في مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية (أبريل ١٩٩١م) بعنوان نهاية التاريخ ، ثم نشر له كتاب بالعنوان نفسه ، ترجم إلى لغات عديدة عام ١٩٩٢م .

ويعيّن هنتينجتون هذه المناطق المتشابكة فيقول : إن أهمها :

- شمال البحر الأبيض المتوسط بإزاء جنوبه (هنا تحتل المسألة الجزائرية مكانًا هامًا، مثلما رأينا في قمة الدول المصنعة الثمانية بمدينة نابولي الإيطالية ٩ - ١٠ يوليو ١٩٩٤م) .

- جمهوريات الاتحاد السوفييتي المسلمة وجمهورياته المسيحية (هنا الحرب الحقيقية دائرة مثلاً بين الأزر والأرمن، وبين الروس والطاجيك، وبين الروس والشيشان) .

ويهمل هنتينجتون التحدي الأكبر المفروض على المشرق الإسلامي، بسبب توسع الدولة اليهودية، لا على حساب فلسطين وحدها، بل على حساب أراض عربية مسلمة عديدة، وبتطلعات استراتيجية واقتصادية وعسكرية وثقافية، تجعل في نظرنا المعركة الفلسطينية أخطر مواطن صراع الحضارات مستقبلاً، ويتجاوز حجم تلك المعركة مجرد رسم الحدود لنواة دولة فلسطينية، إلى أن يصبح مواجهة بين حق الإسلام التاريخي المكتسب في القدس، منذ الفتح الأول، وبين مشروع تشويهي دخيل، تتضافر فيه جهود الصليبية والصهيونية، لا لمجرد احتلال أرض، بل لتطويق دار الإسلام وتفجيرها من الداخل (مشروع السوق الشرق أوسطية، والنظام العالمي الجديد، ومخطط تحريف الأنهار عن مجراها، وبرامج تهويد المدن الإسلامية بفلسطين) .

وإننا نعتقد أن إهمال الكاتب اليهودي لهذا الصراع القادم الحتمي، ليس بسبب نقص في ثقافته، بل هو إهمال مقصود عن أيديولوجية، لأن هنتينجتون يريد إيهام قرائه والرأي العالمي، بأن هذه المسألة محسومة، لأنه يضع الثقافة اليهودية، فيما يسميه المنظومة الثقافية الشرقية، التي يضع فيها الإسلام أيضاً،

وهو ضرب من ضروب التضليل، يندرج في المخطط، بينما الواقع أن الثقافة اليهودية انفصلت في أواخر القرن التاسع عشر عن جذورها الشرقية، واندمجت في المشروع الاستعماري الإمبريالي الفكري والسياسي، ضد العدو المشترك: الخلافة الإسلامية [انظر كتاب الدولة اليهودية لثيودور هرتسل(١)].

وهذا الكتاب الذي عربه وقدمه الأستاذان عدس وغنيم، ظل بدون ترجمة عربية منذ صدوره عام ١٨٩٦م! وهو يفصح قبل قرن، عن عملية قطع حبل السرة بين اليهودية وجذورها الشرقية، لكي تتحول إلى «الصهيونية» وتصبح رأس حربة المشروع الغربي المسيحي، لابتلاع دارالإسلام، ويشرع مهندسو الإمبراطوريات الفرنسية والبريطانية، في الترويج لمصطلح «الحضارة المسيحية - اليهودية»، وتوضع في لغات أوروبا مئات المؤلفات، وتعقد مئات الندوات، للتبشير بهذا المولود اللقيط المشوه، الذي يجمع بين الضد والضد، ويتناسى الجميع تراثًا عملاقًا من القهر والإبادة والعنصرية، والكراهية، بين المسيحيين واليهود، بدأ بالمفهوم النصراني لصلب السيد المسيح، ومرّ بكارثة إحراق اليهود في الأندلس في محاكم التفتيش مع المسلمين عام ١٤٩٢م، وانتهى بفاجعة هتلر والنازية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م). والعجيب أن اليهود في تاريخهم هذا، لم يجدوا ملجأً ومستجارًا إلا عند المسلمين.. وأحداث الهجرات اليهودية إلى إسلامبول، ومدن المغرب الإسلامي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، معروفة، سجلوها بأنفسهم قبل أن يسجلها المسلمون.

إن الذي يطالع كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) لضابط المخابرات البريطاني

---

(١) الدولة اليهودية، تأليف ثيودور هرتسل، ترجمة محمد يوسف عدس، ومراجعة د. عادل حسن غنيم، عن دار الزهراء للنشر، مصر، ١٩٩٤م.

الذي قاد ثورة الشريف حسين، ضد الخلافة العثمانية، يكتشف بعض الحقائق التاريخية التي اتضحت أبعادها مع مرور الزمن في هذه النقطة بالذات.

فلورانس يكتب عام ١٩١٦م حرفيًا: «لقد طلبت مني وزارة الخارجية البريطانية، أن أرسل نسخة من كل تقرير أكتبه إلى السيد روتشيلد» – أكثر اليهود ثراءاً في أوروبا، ورجل المصارف وزعيم الحركة الصهيونية الاقتصادية – ويضيف لورانس متسائلاً: «ولم أفهم بالضبط القصد من تلك التعليمات...».

هذا وقع عام ١٩١٦م، ونحن فهمنا بعد سبعين عامًا القصد من تلك التعليمات، ويكفي أن نلاحظ أن الأحداث الواقعة مباشرة بعد الثورة العربية – في الحقيقة الحجازية – جاءت كالتالي:

١٩١٦ – معاهدة سايكس ـ بيكو، لاقتسام البلدان العربية.

١٩١٦ – ترقية مصطفى كمال أتاتورك إلى رتبة لواء، ومنحه لقب الباشوية.

١٩١٧ – البريطانيون يحتلون بغداد، وألنبي الجنرال الإنجليزي يحتل القدس.

١٩١٧ – كذلك وعد بلفور، بإنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين.

١٩١٨ – لورانس يدخل دمشق مع فيصل بن الحسين.

١٩١٨ – كذلك اندثار الخلافة العثمانية من كل البلدان العربية.

١٩٢٠ – الفرنسيون يطردون فيصل من سوريا، ويحتلونها ويحتلون لبنان.

– البريطانيون يعلنون الانتداب – أي الاستعمار – على فلسطين وشرق الأردن والعراق.

وهل يفيد أي تعليق على هذا المسلسل الساطع الناطق؟ وهو مسلسل تمتد

حلقاته إلى يوم الإسلام هذا، لكن الغلاف الخارجي، يتغير بتغير الأحوال. فالذي كان احتلالاً أو انتداباً، أصبح يسمى مقتضيات النظام العالمي الجديد، والذي كان تنصيراً مباشراً، أصبح ينعت بالتنوير، والذي كان اسمه استعمار الشعوب المسلمة، أصبح يكنّى بكنية لطيفة مستساغة، هي مقاومة الأصولية، والذي كان يعرف بالقضاء على اللسان العربي، أصبح اسمه الجديد: كونية الثقافة أو إنسانية المعرفة، ورأينا جنوداً من صلبنا وأبناء عمومتنا، تنطلي عليهم هذه المصطلحات الجديدة، فيهبون للترويج لتلك البضاعة المغشوشة، وهم غافلون، أو إن مصالحهم الشخصية الضيقة، ترتبط بالتوسع الغربي المتغطرس الفج.

منذ زمن قصير صدر كتاب المفكر الأمريكي بول كينيدي[1] بعنوان: «الإعداد للقرن الحادي والعشرين»، وهو تأليف شامل يضم السياسة والاقتصاد والثقافة وعلم الاجتماع، في منظومة مستقبلية تطمح إلى الموضوعية، لدراسة مصير الإنسان، على ضوء التحولات المدوخة الكبرى في حياته ومواقفه.

والطريف في الكتاب أنه يفرد الحضارة الإسلامية، بفصل هام، يوضح فيه مدى قدرة حضارتنا في كسب سباق القرن القادم، وعناصر قوتها ونقاط ضعفها. ويستعرض بول كينيدي مواطن الصراعات الإسلامية الداخلية والخارجية، ويقول: إن أبرزها المعضلة الفلسطينية، ومشاكل عقائدية أو حدودية بين عدد من البلدان المسلمة، ومشاكل أقليات عرقية أو دينية في بعض البلدان ذات الأغلبية المسلمة.. ويلاحظ المفكر الأمريكي، أن أبرز عراقيل التنمية

---

(١) (PREPARING FOR THE TWENTY FIRST CENTURY) PAUL KENNEDY راجع عرض الكتاب في مجلة الهلال، أكتوبر ١٩٩٣م، بقلم د. السيد أمين شلبي.

في هـذه البلدان هي عدم المواءمـة بين التعليم والمجتمع، وتخـريج خبـرات، لا توظف بعد تحصيلها على الشهادات، وعدم الاهتداء إلى مناهج حكم توفيقية في أغلب البلدان، وانشغال بعض الدول بالاقتصاد التعبوي (وضع العراق وإيران من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨م) إلا أن بول كينيدي ينتهي إلى خلاصة نعتقد أنها ذكية وحقيقية، فيقول: إن العالم الإسلامي يفتقد «**ثقافة المشروع**»، وهو مصطلح أمريكي يشير إلى انعدام رؤية مصيرية متكاملة، أي تحديد مسبق لغاية التنمية والتقدم، ثم السعي لتنفيذها بوسائل التربية، والمؤسسات الاقتصادية، والتطور الاجتماعي.

وينتقد الكاتب أفكار جل الملاحظين الغربيين الذين يقولون: إن أسباب تخلف العالم الإسلامي تعود إلى معوقات تاريخية وحضارية – وهم يقصدون طبعًا التفسير الاستعماري الجائر، بأن الإسلام مضاد للعلم – فيرد عليهم بول كينيدي، بأن «الإسلام ولقرون قبل النهضة الأوروبية، قاد العالم في الرياضيات وعلوم رسم الخرائط والطب، والعديد من وجوه العلم والصناعة، كما ضم هذا العالم مكتبات وجامعات ومراكز، في وقت لم تكن اليابان وأمريكا تمتلك شيئًا من هذا، ولم تكن أوروبا تمتلك إلا القليل...».

وإني أردت الإلحاح على رأي هذا المفكر لما وصفه للحضارة الإسلامية من وصفة «ثقافة المشروع»، فنحن فعلاً نحتاج إلى ثقافة المشروع، لأننا في الواقع نمتلك الوسائل، فلدينا الخبرات التي ندخل بها سباق الحضارات.. وهذه الخبرات المسلمة، سبعون بالمائة منها تعمل في جامعات أوروبا وأمريكا ومخابرها، ومراكزها، وأسباب هجرتها معروفة، وحلول عودتها معروفة، وهي في أيدي أهل الحل والعقد، ورهينة اختيارات سياسية، وجامعية معروفة كذلك،

والزمن كفيل بتغيير هذه المعادلة، من نزيف الأدمغة، إلى إدماج الأدمغة، وتمكينها من الإنجازات والبحث والإسهام.

والقول بأن الإسلام والتخلف العلمي صنوان، هو قول أحمق يفنده التاريخ، وكذلك الحاضر الراهن، فلم يكن للعالم نصيب من العلوم التجريبية، إلا عندما نهض الإسلام وحده، بمغامرة النفاذ إلى أقطار السماوات والأرض.. وغير صحيح أنه أخذ ذلك من الثقافة الإغريقية بعد تعريبها في بيت الحكمة، لأن التراث العلمي الإغريقي تراث يتسم بالتأمل في ظواهر الطبيعة، واستقراء تحولاتها، دون النفاذ التجريبي الذي استقاه العلماء المسلمون من نص القرآن، وإعلان استخلاف الإنسان في الأرض، وحثه على السعي والتدبّر والتغيير.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٥٣).

﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (الطور: ٢١).

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ (النجم: ٣٩-٤٠).

ويكفي القول: إن كتب الطب الإسلامي ظلت تدرس بجامعات أوروبا وخاصة فرنسا إلى القرن التاسع عشر، وكذلك كتب الرياضيات، مثل كتاب الجبر الكبير للشاعر العالم عمر الخيام، والذي توصل إلى حل معادلات الدرجة الثالثة التي نسبت ظلماً إلى ديكارت - بعد الخيام بخمسة قرون - وكان المسلمون أول من أجرى عمليات جراحية على العين، وعلى الجمجمة، مثلما دلت على ذلك اكتشافات أثرية بكل من بغداد والقيروان، ومثلما تؤكده الكتب الطبية، وكان المسلمون كذلك أول من عالج الأمراض العقلية، بما يسمى اليوم

علم النفس في زمن كان المرضى بهذا النوع من العلل، يحرقون في الكنائس، على أيدي الرهبان والقساوسة، كمصابين بحلول الشيطان في أرواحهم.

وكان أول بابا مسيحي مستنير هو سلفستر الثاني، الذي رحل من فرنسا للدراسة في جامعة قرطبة الإسلامية، عندما كان راهبًا بسيطًا يدعى (جربير) وعاد لوطنه يبشر بالثورة العلمية والتكنولوجية، بمفهوم ذلك العهد، حتى ظنه مواطنوه مجنونًا!(١).

التاريخ الأكبر والتاريخ الأصغر

يرتكب أغلب المجادلين في حضارة الإسلام خطأً شائعًا، وهذا الخطأ أصبح كأنه الصواب، لكثرة ما شاع حتى انغرس في الأذهان، وتحول إلى « حقيقة ». إنه إقامة الحجة على الملتزمين بالنهج الإسلامي، بأن تاريخ الإسلام ما هو إلا مسلسل استبداد، وسفك دماء، وانتهاك حقوق، منذ الفتنة الكبرى إلى عهد الخلافة العثمانية، أو حتى إلى يوم الناس. وهو تفسير أيديولوجي موجه للتاريخ، يستعمله عادة المستشرقون المغرضون، وتلامذتهم ومريدوهم من بني جلدتنا لإفحام خصومهم ومخالفيهم. ولكن على شدة ما استعمل هذا المنطق، وعلى طول تكراره، تبناه معظم شبابنا عن حسن نية، واعتمدوه في كل جدل، كأنما اقتنعوا به، وإنك تعثر على أثره في كتبهم ومقالاتهم ودراساتهم، ومداخلاتهم،

---

(١) روجي جارودي ، حوار الحضارات ، استشهد به الدكتور محسن عبد الحميد ، كتاب المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري ، كتاب الأمة ، دولة قطر .

علم النفس في زمن كـان المرضى بهـذا النوع من العلل، يحرقـون في الكنائس، على أيدي الرهبان والقساوسة، كمصابين بحلول الشيطان في أرواحهم.

وكان أول بابا مسيحي مستنير هو سلفستر الثاني، الذي رحل من فرنسا للدراسة في جامعة قرطبة الإسلامية، عندما كان راهبًا بسيطًا يدعى (جربير) وعاد لوطنه يبشر بالثورة العلمية والتكنولوجية، بمفهوم ذلك العهد، حتى ظنه مواطنوه مجنونًا!(١).

التاريخ الأكبر والتاريخ الأصغر

يرتكب أغلب المجادلين في حضارة الإسلام خطأً شائعًا، وهذا الخطأ أصبح كأنه الصواب، لكثرة ما شاع حتى انغرس في الأذهان، وتحول إلى « حقيقة ». إنه إقامة الحجة على الملتزمين بالنهج الإسلامي، بأن تاريخ الإسلام ما هو إلا مسلسل استبداد، وسفك دماء، وانتهاك حقوق، منذ الفتنة الكبرى إلى عهد الخلافة العثمانية، أو حتى إلى يوم الناس. وهو تفسير أيديولوجي موجه للتاريخ، يستعمله عادة المستشرقون المغرضون، وتلامذتهم ومريدوهم من بني جلدتنا لإفحام خصومهم ومخالفيهم. ولكن على شدة ما استعمل هذا المنطق، وعلى طول تكراره، تبناه معظم شبابنا عن حسن نية، واعتمدوه في كل جدل، كأنما اقتنعوا به، وإنك تعثر على أثره في كتبهم ومقالاتهم ودراساتهم، ومداخلاتهم،

---

(١) روجي جارودي، حوار الحضارات، استشهد به الدكتور محسن عبد الحميد، كتاب المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، كتاب الأمة، دولة قطر .

وهو منطق يبعث الريبة في نفوس المسلمين، ويزعزع إيمانهم، ويحدث شروخًا في كبريائهم، ويجعلهم أذلة في اللقاءات والندوات والمناظرات.

وهكذا نجح أعداء الإسلام، في زلزلة الإيمان في قلوب الشباب، حينما يقدمون أمثلة الفتنة الكبرى، ومقتل عثمان، والحرب الطويلة، بين علي كرم الله وجهه، ومعاوية، كأنها هي الوجه الوحيد لفجر الإسلام، في حين يغفلون فتح مكة، وملحمة الشورىٰ في السقيفة، وهزيمة البيزنطيين في فلسطين، وانتصار الإسلام على الفرس في القادسية، وفتح مصر على يد عمرو بن العاص، والقضاء على الدولة الساسانية، وفتح أرمينيا وجورجيا، وانتصار المسلمين في البحر على الأسطول البيزنطي في معركة أم الصواري. كل هذه الملاحم التي توشح صدر الإسلام في فجره وقعت فيما بين عام ٦٣٢م، حين التحق النبي الكريم ﷺ بالرفيق الأعلى، وسنة ٦٥٦م حين قتل عثمان بن عفان، وتولى علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وهي الانتصارات التي تحققت للإسلام في مطلع شمسه، ووضع عبرها أقدامه على أرض يابسة من التمكن، حتى أتيح له ما جاء بعدها من فتوحات. وهذه الانتصارات الكبرى، نكاد لا نعثر لها على أثر في أغلب كتابات المؤرخين من مستشرقين وتلاميذ المستشرقين من العرب، لأن همّ هؤلاء ليس إنصاف التاريخ الإسلامي، بل غرضهم الطعن فيه، وفي رجاله ومؤسسيه، واتخذوا لذلك خطة محكمة، وهي إبراز التاريخ الأصغر على حساب التاريخ الأكبر.

التاريخ الأصغر هو تاريخ الصراع السياسي - الدموي أحيانًا - من أجل القيادة والحكم.. والتاريخ الأكبر هو ذلك المد الإسلامي العظيم الواثق الذي نبع كالنهر القوي الدافق من جهاد الرسول ﷺ، وانطلق فاتحًا الأمصار وهاديًا الأمم،

وحاملاً أمانة السلام والعدل، ومؤمنًا الشعوب المغايرة على حياتها ومعتقداتها وأملاكها وأعراضها.

التاريخ الأصغر هو تاريخ الرجال كأشخاص يتقاتلون من أجل سدة الحكم وهم - مسلمين أو غير مسلمين - لا يعدون كونهم أفرادًا لهم نفوس بشرية لم يعلن الله سبحانه، ولا الرسول ﷺ، أنها معصومة من الخطأ والزلل، وأنها منزهة عن الضعف والخلل، بل قال الله تبارك وتعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ ﴾ (الشمس: ٧-٨).

ذلك هو التاريخ الأصغر الذي تعلمته أجيال المسلمين، وحجب عنها رؤية نور التاريخ الأكبر. تاريخ الأمة بأكملها: كيف نشأت؟ وكيف جاهدت؟ وكيف فتحت؟ وكيف انتصرت؟ وكيف سادت؟!

وهذه الملاحم العظمى الخالدة ،بما فيها من شحنات تربوية، كان من المفترض أن نؤسس عليها كبرياء أمتنا، خلال القرون، وقع مع الأسف اختزالها، بل أريد لها كسوف كامل مثل كسوف الشمس وراء كوكب الفتنة الكبرى،، وموقعة الجمل (٦٥٦م).

وهذا مثال واحد من كامل مسلسل الغش والخديعة، الذي زيف تاريخنا وجاء من بعده مثال الصراع بين الدولة الأموية وخصومها، وهو من باب التاريخ الأصغر، حيث غطت القصص الأدبية الملفقة، التي حيكت عن يزيد والوليد، على أولى انتصارات المسلمين في الهند، وعبور جيحون إلى بلاد الترك (من ٦٦٤م إلى ٦٦٧م)، والحدث الحاسم المتمثل في فتح المغرب الإسلامي، وتأسيس القيروان (٦٧٠م) وبدء حصار المسلمين لمدينة القسطنطينية، قلعة النصرانية في المشرق (٦٧٨م)، وضرب أول دينار عربي (٦٩٥م) واستقرار

مؤسسات الدولة الإسلامية على يدي عبد الملك بن مروان.

كل هذه الأمجاد التي رسخت الإسلام، ووطدت أركانه، يمر عليها أغلب مؤرخينا مر الكرام، في حين تطفو على سطوح كتبهم، ثورة المختار الثقفي بالعراق (٦٨٥م)، وقصص استبداد الحجاج بن يوسف.

وهنا أيضًا ينجح التحريف التاريخي والأيديولوجي، في إسدال الحجب السميكة على انتصارات الأمة، بواسطة إبراز سلوك الأفراد. أي أن التاريخ الأكبر يضيع في دوامة التاريخ الأصغر.

وإن الذي يروم دراسة نهاية القرن الأول، وبداية القرن الثاني للهجرة (بداية وأواسط القرن الثامن المسيحي) ليصطدم، بأن أخبار الوليد بن عبد الملك بن مروان، وحاشيته، وقصره، تنشر سحابًا سميكًا على أحداث جليلة عملاقة منها فتح قتيبة بن مسلم لبخارىٰ وسمرقند، ومد السيادة الإسلامية على آسيا الوسطى (٧٠٥م)، وإتمام الفتح الإسلامي لشمالي أفريقيا، وأول نزول للمسلمين بإسبانيا في حملة طريف (٧١٠م)، ثم فتح الأندلس، وبداية أذكىٰ وأثرى حضارة في البحر الأبيض المتوسط على يد طارق بن زياد (٧١١م)، وكذلك بداية الفتوح المسلمة في فرنسا ذاتها (٧١٤م) وغزو العرب للشبونة (٧١٦م).

ثم تمضي في حب اطلاعك على قمة عهد بني أمية، في انتشار الحضارة الإسلامية، فيهولك ما تعرض له هذا الزمن المجيد الأبي، من طمس، فتطفوا على سطح الكتب، مغامرات يزيد بن عبد الملك، وحكايات هشام بن عبد الملك، التي يعوز معظمها التحقيق العلمي، بينما تغرق في قاع التناسي المتعمد أعمال عظمى غيرت مجرى التاريخ، مثل فتح نربونة بجنوبي فرنسا (٧١٩م)، ثم إن

مجداً أثيلاً مثل بسط السلطان الإسلامي على كامل جنوب فرنسا، لمدة ربع قرن، يندثر تماماً لكي تنفرد منه بالتعريف معركة بلاط الشهداء، التي تواجه فيها عبد الرحمن الغافقي، وشارل مارتال، بسهول مدينة (بواتي) في قلب فرنسا (٧٣٢م)، كما تندثر مناقب الدولة الأموية في دفع حركة التاريخ والحضارة باتجاه الحق والعدل، لتنقل لنا كتب الرواة أخبار الشاعر عمر بن أبي ربيعة، والوصلات الغنائية لمعبد، والغريض، وابن سريج، وابن عائشة، والأبجر.

أما إذا ولجنا باب الدولة العباسية منذ قيامها سنة (٧٥٠م) فستندهش لتزاحم أخبار الصراع بين السنة والشيعة مع أنباء اضطهاد الفكر إلى جانب انتعاش الثورات، وكأنما توحي إليك كتب الأدب والتاريخ بأن حضارة الإسلام تفردت بهذه الظواهر البشرية، دون سواها من الحضارات، بينما تشير وقائع الماضي الإنساني منذ فجر التاريخ، إلى أن هذه سنة الله في خلقه، وأن الإسلام جاء ليحد من نوازع الشر وغرائز الضعف ومكامن الجور، لا ليعلن أن الأرض أصبحت جنة، ولا ليقول: إن المسلمين أصبحوا ملائكة.

إن السر المختوم في القرآن هو أن نعتبر بالماضي وأن نتعظ بالقرون الخوالي، وأن نتدبر حركة التاريخ، ونشوء الحضارات، ونتأمل الأسباب، ونربط بينها وبين النتائج. ولذلك نؤمل أن نعتمد التاريخ الصحيح للحضارة الإسلامية، لا أن نعتمد التاريخ المحرف، الذي وصلنا أغلبه عن طريق رواة الأدب، وهم صناع أساطير، ومثل من يأخذ عنهم اليوم، كمثل من سيأخذ بعد ألف سنة عن أجهزة إعلام الغرب الراهنة لدراسة الإسلام في القرن العشرين. ومن تلك المرحلة العباسية، خذ مثال غياب الغزوات الصيفية لبلاد الروم، بعد تأسيس مدينة بغداد، من كتب التاريخ الأدبي، وتعويض هذه الأحداث الجسام، بأخبار المغنية

دنانير (من ٧٦٦م إلى ٧٨٠م) . . وخذ مثال طغيان التصادم بين الفكر الإسلامي الحر والدولة العباسية، على المنعرج الثقافي الحاسم المتمثل في حركة إعادة إحياء الفكر اليوناني، وتعريب أمهات كتب الفلسفة والعلوم الإغريقية، ومن ثم إثراء الثقافة الإسلامية وقيامها بدور ريادة الثقافة الإنسانية من (٨٠٠م إلى ٨٥٠م) أي من نكبة البرامكة على يد هارون الرشيد إلى نكبة القاضي أحمد بن أبي داوود على يد المتوكل.

ونحن إذا واصلنا هذا الجرد المختزل لتاريخ الحضارة الإسلامية، فمررنا إلى الدولة الزيدية بجنوب بحر قزوين، ثم باليمن، وإلى الدولة الصفارية بشرقي فارس، وإلى الدولة الطولونية في مصر، والدولة الطاهرية بفارس، ثم الدول المتعاقبة بالأندلس، بإماراته المتناحرة، ثم عددنا الثورات المتلاحقة، التي تعز عن الحصر ومنها ثورة الزنج، وثورة القرامطة، لو قمنا بعمل كهذا، لما كفانا جبل من الورق ونهر من المداد، ولكننا أردنا بعرض أمثلة من القرون الأولى لانتشار الإسلام، لندلل على أن هناك تاريخاً كبيراً، وتاريخاً صغيراً لحضارة الإسلام. تاريخ أكبر صنعته الأمة في مسارها الواثق نحو الفتوح والتوسع، وتأليف القلوب، وتاريخ أصغر ، صنعه رجال بعينهم. فتشكل التاريخ الأكبر على مستوى الإسلام، وإرادة الله سبحانه من تعمير الأرض، وإنشاء المصالح، وإقامة العدل، في حين تشكل التاريخ الأصغر على مستوى القصور والبلاطات، ولذلك اتجهت إليه أضواء الكشف، وتناولته ألسنة الرواة والقصاص، وأقلام المبدعين، وقصائد الشعراء، ونفخت فيه الفطرة الشعبية بالتضخيم والتهويل، حتى اختلط مع مرور الزمن، وبعد المسافة، ما هو تاريخ محض، بما هو خيال محض، وانطلت على أبناء جيلنا المسلم أغلب الروايات، فلم يعودوا يرون في تاريخهم، إلا ما ظهر منه، أي تعاقب الفتن وتواصل المحن، غافلين عما صنع

عظمة هذه الحضارة، أي عبقرية الأمة، المتمثلة في إجماعها.

نحن بصدد عرض ما بيد الحضارة الإسلامية من عناصر القوة والمنعة، وهي تدخل صراع حضارات معلن، لا بصدد تقديم كشف عن مآثر الإسلام، فهي والحمد لله كالشمس تضيء العالم، وتبعث فيه الحياة، وتجدد لديه الأمل.

ولذلك ننتقل إلى استخلاص فكرتنا الأساسية التالية:

ماذا لو اعتبرنا أن تاريخ الإسلام الحقيقي ليس هو التاريخ الأصغر، الذي يدور في فلك الأفراد من خلفاء وملوك ووزراء، ولكنه التاريخ الأكبر الذي صنعه إجماع الأمة في ملاحمها الفتوحية بالأمس، ويصنعه إجماع الأمة اليوم، بمقاومة الدخلاء، واستعادة الهوية، واسترجاع الأصول؟

ماذا لو أعدنا النظر جذريًا في مادة التاريخ، فاعتززنا بالملحمة الفكرية وبالمغامرة الثقافية اللتين فجرتا عبقرية الأمة، منذ فجر الإسلام إلى يوم الناس، عوض أن نحصر تاريخ الحضارة الإسلامية في التاريخ الأصغر: تاريخ الإنسان الفرد باستبداده وقمعه وجبروته، وضعفه وخيانته، واستحلاله ما حرم الله، عبر أحداث السياسة وتقلبات الملك؟

ثم ماذا لو اعتبرنا أنفسنا كمسلمين أمناء على رصيد الإجماع الإسلامي، وخزنة لذلك التراث العظيم، غير مسؤولين كأمة، عن سلوك الأفراد مهما كانت مراتبهم ومهما علت مواقعهم؟

ونحن عندما ندعوا لهذا الاتجاه لا نأتي ببدعة من عندنا، بل نستخلصه من عبقرية الإسلام. فالإسلام هو دين الحضارة الإلهية، أي أن عماد حضارتنا هو القرآن، بما أنزل من تشريعات، حدَّت من تطرف الإنسان الفرد، فعقلت يديه

عن الطغيان بالضرورة، ووضعت اجتهاده في كنف تلك التشريعات المنزّلة.. وبعكس الإسلام، كانت وما تزال الأمم غير المسلمة تعتمد على تشريعات بشرية فردية، تحمل أسماء الملوك الذين وضعوها، أو أوحوا بها لمن وضعها...

يقول الدكتور أحمد حمد[1] :

« عندما أراد حمورابي قبل الميلاد بعشرين قرنًا، أن يضع تشريعًا يسير الناس عليه في معاملاتهم، جمع العلماء وأمرهم، أن ينتهوا من وضع هذا التشريع في مدة حددها لهم.. ثم في عهد جوستنيان، أي في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، صنع جوستنيان هذا الصنيع مع العلماء.. ثم في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، يأتي نابليون ليصنع هذا الصنيع كذلك مع العلماء.. وأدل دليل على ذلك، أن هذه التشريعات التي صدرت بمجهود العلماء، لا تنسب إليهم هم، بل تنسب إلى هؤلاء الحكام، فيقال: تشريع حمورابي، وتشريع جوستنيان، وتشريع نابليون... ولم يحدث في أي عصر من العصور، أن ينسب تشريع ما إلى أي حاكم من المسلمين، فإن الشرع هو شرع الله، والفقهاء إنما يجتهدون ثم يجمعون على ما يرضي الله من حكم...

ولقد كان اهتمام الأمة بالعلماء، وتعظيم شأنهم، أن جعلوا اتفاق المذاهب على حكم في مسألة من المسائل إجماعًا، يؤخذ به مأخذ الاتباع والالتزام، فاتفاقهم حجة، ونسبوا كل مذهب من هذه المذاهب إلى صاحبه لا إلى الحاكم الذي كان في عهده، فقالوا: مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك، ومذهب

---

(١) الدكتور أحمد حمد ، الإجماع بين النظرية والتطبيق ، دار القلم ، الكويت .

الشافعي، ومذهب أحمد بن حنبل، بل إن الحاكم هو الذي ينسب إلى المذهب إذا مال إليه، فيقال: هذا الحاكم حنفي، والآخر كان شافعيًّا وهكذا...».

نحن إذن بإزاء جوهر من جواهر الحضارة الإسلامية. فالإجماع هو المصدر الثالث للشريعة بعد القرآن والسنة، وهو كما أسلفنا يعتمد اتفاق المسلمين أو أهل الحل والعقد منهم - حسب تعريف الغزالي، والرازي، والآمدي - وهذا الجوهر الإسلامي ثابت من الثوابت عبر تاريخ الحضارة الإسلامية، مهما اعتراه من خلل، عندما استبد بعض الحكام، فاضطهدوا بعض رجال الفكر والاجتهاد والصلاح. بل بالعكس، إن تاريخ اضطهاد الأئمة والعلماء لعبرة لمن يعتبر، إذا ما درسنا عاقبة الطغاة، وكيف هبت ريحهم، وانهار بنيانهم، وزالت دولتهم، وخسف الله سبحانه بهم الأرض، وبقي فكر العلماء، وإجماع المجتهدين، آية من آيات الإسلام، وحجة من حججه، ونبراسًا هاديًا للأمة بالأمس واليوم وغدًا.

فالرأي عندي أن تنطلق صحوة الإسلام المباركة من عملية إعادة قراءة تاريخ الإسلام، فنغير جذريًا من اعتباره تسلسل الدول فحسب، إلى اعتباره تسلسل المدارس الفكرية، والمذاهب الثقافية على مدى القرون. فالمنظور التقليدي السائد اليوم في دراسة التاريخ، هو المنظور الأوروبي الذي يضع الحدث السياسي في قمة قراءة التاريخ، ولا يكون الحدث الفكري إلا ثانويًّا أو فرعيًّا، وهو منظور لعله ينفع في التاريخ الأوروبي، لكنه منظور قاصر في التاريخ الإسلامي. فإذا كانت السياسة تحدد الفكر في أوروبا، نظرًا لأسباب تاريخية، ودينية، وجغرافية، واجتماعية يطول شرحها، فإن الفكر هو الذي يحدد السياسة في العالم الإسلامي، حتى لو اصطدم ذلك الفكر بالبلاط.

ويجدر بنا إذاً أن نعيد الاعتبار لتاريخ الأفكار في الإسلام، ونتبنى من ماضينا، ما تعاقب من علماء وفقهاء، وأئمة، ودعاة، وحكماء، لنتخذه موروثًا شرعيًّا لجيلنا المسلم في القرن الحادي والعشرين، منه نستمد طاقة الاجتهاد، ورصيد المواجهة الحضارية، وعليه نؤسس الصحوة المباركة.

وقد أخطأت كتب الأدب وتصانيف الرواة في حق الحضارة الإسلامية عندما أرَّخت للملوك وحاشياتهم، وجيوشهم، وفتنهم، وصراعهم على سدة الحكم، في حين أهملت تاريخ الفكر، والمفكرين، والمناظرات، والمدارس الثقافية، مقتصرين في أحيان كثيرة على الشعر والشعراء، بسبب دوران الشعراء في فلك الملوك والخلفاء، وتناولهم في المدح، والهجاء، لخصائص الملوك وأعدائهم، وانقسام الشعراء في كل العصور إلى أحزاب تناصر هذا، وتحط من قدر ذاك.

ثم إن الشعر بهذا المعنى لا يكون ديوان العرب ، بل المرايا المضللة، والمحرفة، لواقع العرب، وبالتالي لحضارة الإسلام.

وإذا أخذنا مثلاً واحداً من أمثلة عديدة، لتأكدنا من صحة هذا الرأي. فالكتب التي تناولت نهاية عهد المعتصم بالله، وعهد الواثق، وعهد المتوكل، وبداية عهد ابنه المنتصر، تكاد تنحصر في ذكر الصراع الدموي داخل الأسرة الحاكمة، وما صاحبه من مؤامرات القصر المتلاحقة، دون التطرق الكافي إلى التدخل المكثف بين قضايا الحكم، وقضايا الفكر في ذلك الجزء من القرن التاسع الميلادي.. فمنذ إنهاء محنة خلق القرآن، ازدهرت المدرسة العلمية التطبيقية على يدي العالم الرياضي الخوارزمي، وتنامى علم الجغرافيا على يدي ابن خرداذبة

صاحب كتاب (المسالك والممالك)، وتشكلت المدرسة الفكرية التي أسميها بالموسوعية، على يدي الجاحظ بكتب الحيوان، والبيان والتبيين، والبخلاء، والرسائل المعروفة، وجاءت مساهمات عبدالله بن المقفع، في الفكر السياسي، بكتب كليلة ودمنة، والأدب الكبير، والأدب الصغير، ورسالة الصحابة.. ثم ازدهر الفتح الإسلامي، حتى بلغ روما، وكاد يدخلها المسلمون (٨٤٦م)، ووضع الإسلام يده على جزء كبير من بيزنطة.

ونحن نشعر بمزيج من المرارة ، والانكسار، حينما نجد أن كتب السير الأدبية التي تحدثت عن هذه المرحلة الثرية الحاسمة من تاريخ الإسلام، إنما اكتفت بتقديم المسرح البلاطي والأدبي – عادة الشعري والغنائي – ولم تفلح في رسم خارطة العمران البشري الإسلامي، في عهود أربعة ملوك مع الامتدادات السياسية والمعرفية، والروحية، والفلسفية، التي تساعد على دراستها والاعتبار بخصائصها. وإذا كان هذا حال كتب وضعها معاصرون لتلك المرحلة، مثل كتاب (طبقات فحول الشعراء)، لمحمد بن سلام الجمحي، فما عسى يكون حال كتب جاءت بعد تلك المرحلة بعشرات بل ومئات السنين، مثل كتاب الفهرست لابن النديم (٩٨٨م)، أو كتاب زهر الآداب للحصري القيرواني (١٠٢٢م)، أو كتاب طوق الحمامة لابن حزم (١٠٢٧م)، إلى آخر الكتب الأدبية والتصنيفية المعروفة، التي جاءت بعدها، وشكلت – مع الأسف – مراجع أساسية لدراسة الحضارة الإسلامية، وخاصة بأقلام المستشرقين، وتلاميذهم العرب. فدرج المؤرخون المسلمون وغير المسلمين – وبعضهم عن حسن نية – على استقاء مراجعهم من الكتب الأدبية، وأغلبها مكتوب في بلاطات الملوك، والأمراء، بقصد تسلية ذوي النفوذ، وأصحاب السلطان، لا بقصد دراسة

التاريخ والاعتبار به. فهذه الكتب ذات قيمة فنية متميزة، ولكنها تاريخيًّا لا تعدو أن تكون أجزاءاً ملحقة بكتاب ألف ليلية وليلة.

وهذا الخطأ الفادح، ليس مقصوراً على القدماء، بل إن المعاصرين يرتكبونه، ولكن عن سوء نية، وخبث مقصد. فإنك لو قرأت كتاب (الخلافة الإسلامية) للمستشار محمد سعيد العشماوي، لعثرت في الهوامش على أغلب التصانيف الأدبية المذكورة، كمراجع أساسية لدراسة الخلافة الإسلامية. وفي هذه الحالة كما في غيرها، فإن المطلوب إثباته - أيديولوجيًّا - هو بطلان الخلافة الإسلامية، ودموية الماضي الإسلامي، وبالطبع اقتناع المسلمين بأنه ليس بالإمكان خير مما كان، وأنه محكوم علينا بالتبعية لقوالب الغرب، وأشكال نظامه، وسائر شؤون حياته، حتى نكون «مجتمعات مدنية»، و«شعوباً محبة للسلام»!

ونحن لن نكون في واقع الأمر سوى أمم مغلوبة، تابعة، لا كبرياء لديها، ولا ذمة، ولا سيادة. وقضية المستشار العشماوي، تتجاوز مجرد إبداء الرأي، إلى كونها إسهامًا في صنع الهزيمة الحضارية للإسلام، بأيدي الذين أسهموا في هزيمته السياسية، والعسكرية، منذ ١٩٦٧م تحت شعار القومية العربية.

الفتنة ونشأة الفكر السياسي الإسلامي

رأينا في الفصل السابق ،كيف أن تاريخنا الإسلامي، يصلنا أعرج معوقًا، بعد مروره بالمحرفين من الحاشيات المتعاقبة على البلاطات، وعرفنا كيف يكيد المعاصرون لتاريخنا بالطعن والتشكيك، وقد نجحوا في ذلك العمل التخريبي بعض النجاح، بتوجيه ذكي مخطط من أجهزة الإعلام والاستعلام المعادية، حتى إن اسم الإسلام أصبح يعني لدى بعض الشباب، العنف. والغريب المدهش أن أبناء الحضارة الغربية، الذين رسخوا هذه المغالطة في أذهان الرأي العام، ينتمون إلى الحضارة نفسها التي فجرت على مدى جيل واحد (ثلاثون عامًا) من ١٩١٤م إلى ١٩٤٤م حربين عالميتين، راح ضحية أولاهما ثلاثون مليون من البشر، وراح ضحية الثانية سبعون مليون من البشر، وانتهت هذه الأخيرة بفاجعة نووية، مسحت من على الأرض مدينتين كاملتين، هما هيروشيما وناجازاكي باليابان. وهذه الأحداث ليست من عصر ما قبل التاريخ، بل إن « أبطالها » وضحاياها، ما يزالون يعيشون بيننا إلى اليوم.

والفكر المادي الغربي، هو الذي أباد شعوبًا كاملة، كان آخرها شعب سكان أمريكا الأصليين، الملقبين بالهنود الحمر، منذ عام ١٤٩٢م إلى أواسط هذا القرن العشرين، وكذلك الملحمة الدموية المريرة للتجارة بالعبيد الأفارقة، بعد اختطافهم من أدغالهم، وقبائلهم، مما يمثل اليوم وصمة عار على جبين أوروبا وأمريكا. وأقرب إلينا تاريخيًّا محاولة إبادة ستالين لمخالفيه التي قدر عددها المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي نفسه، بخمسة ملايين ضحية في ثلوج سيبيريا، ومحاولة إبادة شعب فيتنام، الذي أفرغت طائرات أمريكا على رؤوس أبنائه

قنابل توازي ما أفرغ أثناء الحرب الكونية الثانية، على أوروبا بأسرها. وجاءت المأساة الاستخرابية المسماة زوراً بالاستعمارية، فأظهرت للإنسانية بشاعة الفكر الغربي العلماني، الذي استحل دماء الشعوب المستضعفة وأراضيها، وخيراتها، فسخرتها القوة العمياء لخدمة ازدهار الغرب ورفاهيته، وزيادة استهلاكه.

وإنك لو قلبت تاريخ القرون الخمسة عشر من الحضارة الإسلامية، على كل الوجوه، لما عثرت على أمثال هذه المذابح، والمجازر، التي حدثت في الغرب، انطلاقًا من الفكر الغربي، أو من انحرافاته.

ونحن حين نذكِّر بهذه الحقائق، فبقصد إبطال مفعول السحر الزائف، الذي أعمى عيون جيلنا المسلم، لينظر إلى تاريخه بدون عقد أو مركبات نقص، وليعرف أن ما يميز حضارته الإسلامية، هو الفكر المضاد للفكر الرسمي، الذي ساد عبر التاريخ. فكل سلوك بشري في الدول الإسلامية المتعاقبة، مال إلى الاستبداد، وخرج عن الشريعة، واجه فكراً إسلاميًّا حراً، كان بمثابة كفة الميزان الشعبية الأخلاقية المرجعية، لإعادة الحق إلى مجراه، والعدل إلى منتهاه، ورد الباطل عن هواه.

إن رصيد الإسلام من الفكر الحر المتمسك بالشرع والحق، هو الذي صنع التاريخ الأكبر، تجاه سلوك الاستبداد، والظلم الفردي أو الرسمي، الذي صنع التاريخ الأصغر. وذلك الرصيد المجيد، هو المخزون، الذي يخوض به الإسلام صراع الحضارات، في صورة حدوث صراع، أو يدخل به حوار الحضارات، في حالة الجنوح للحوار.

وفي البدء، كان فجر الإسلام. التحم التاريخ الأكبر مع التاريخ الأصغر، لصيانة أعظم تحول طرأ على الحضارة الإنسانية، بظهور الإسلام وانتشاره

السريع، وتغيرت الخارطة البشرية في محيط يبلغ قطره حوالي ثمانية آلاف كيلومتر، في ظرف جيل واحد، شرقًا وغربًا، وجنوبًا وشمالاً.

في البدء كان فجر الإسلام

وإنك إذا قرأت الأغلبية الطاغية من كتابات المستشرقين، أو تلاميذهم العرب، لوجدت تسليط الأضواء على الفتنة وتبعاتها، أي على التاريخ الأصغر، وذلك لإثارة النقع على التاريخ الأكبر: تاريخ الفتوحات الزكية، والبطولات الجبارة.

يعدد الدكتور شعبان محمد إسماعيل[1] الخلافات بين الأشخاص في فجر الإسلام، كما يلي:

أول خلاف : لم يتفق المهاجرون والأنصار على منصب الخلافة في سقيفة بني ساعدة، بعد التحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى.

ثاني خلاف : اعتزال علي رضي الله عنه وبعض الصحابة وأهل البيت، الدخول في البيعة.

ثالث خلاف : تفرق الكلمة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه حول المرتدين ومانعي الزكاة.

رابع خلاف : تغلب الرحمة على الحزم، واللين على الشدة، في عهد عثمان رضي الله عنه، مما أعان على استرسال الغواية.

خامس خلاف : مبايعة علي رضي الله عنه في غمرة مقتل عثمان رضي الله عنه.

---

(١) د. شعبان محمد إسماعيل، التشريع الإسلامي: مصادره وأطواره، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٥م.

سادس خلاف : قضية التحكيم الشهيرة بين علي رضي الله عنه ومعاوية.

سابع خلاف : ظهور الفرق الثلاث نتيجة للفتنة :

(أ) جمهور الأمة، الذين يرون وجوب الطاعة لولي الأمر.

(ب) أنصار علي رضي الله عنه وأهل بيته، القائلون بأحقية علي في الخلافة.

(ج) الخوارج، الذين عارضوا هؤلاء وأولئك.

في البدء إذن كان فجر الإسلام متفجراً بهذه الخلافات، لكن القراءة المنصفة للفتنة الكبرى لا تختزل فجر الإسلام في أحداثها، بل تحاول أن تستخلص عبرها السياسية والفكرية التي ساعدت على انتشار الإسلام.

وهذه القراءة لا تتاح إلا متى جردنا الأحداث عن رداء التزوير والتهويل الذي ألبسته كتب الأدب المتعاقبة للتاريخ المحض، فأضفت عليه صفات أسطورية تراكمت مع مر القرون، حتى خبا وهج اللهب التاريخي الإسلامي، تحت أكوام الرماد الخرافي.

وإنك لو حلّلت كل خلاف من الخلافات المذكورة، لوجدته منطلقاً لمدرسة فقهية أو شرعية، كان لها فضل فيما بعد في تجسيم الفكر الإسلامي الخصب الممتد عبر خمسة عشر قرناً من مجد الإسلام إلى يوم الناس هذا.

فالخلاف الأول : وقع والرسول الكريم ﷺ لم يزل مسجّىً في بيته لم يوار الثرى بعد، وهو خلاف يدل على حيوية المسلمين الأقدمين، وميلهم إلى استعمال عقولهم، في أشق فترات التوهج العاطفي، وإنك إذا راجعت وقائع حوار السقيفة لأيقنت أنك بإزاء مجلس شورى حقيقي، حر ذي صلاحيات

نسميها اليوم دستورية، أين منه أغلب المجالس الراهنة. فالخلاف بين المهاجرين والأنصار كان في الحقيقة شعوراً حاداً بالمسؤولية، لدى أوائل المسلمين، نظراً لثقل الأمانة وأهمية قضية الاستخلاف. فالسقيفة ليست شقاقًا بقدر ما هي مرجع للشورى الخالصة المتميزة في الإسلام. ثم إن هذا الخلاف انتهى بإجماع. والإجماع هو الأصل الإسلامي لحكم الأغلبية، دون قهر الأقلية. وهي ميزة يختص بها تاريخ الإسلام دون غيره من الحضارات.

أما ثاني خلاف : أي اعتزال علي رضي الله عنه البيعة، فإنه يضع أسس التوازن في الحكم، وهو مصدر أصلي من مصادر الفكر السياسي الإسلامي. ألم يصفق المثقفون المعاصرون اليوم لثنائية المسؤولية، بين أهل الحكم، وأهل المعارضة في نطاق سنة الحوار والتداول؟ كان ذلك هو جوهر اعتزال علي رضي الله عنه: منع الانفراد بالسلطة، وإيجاد توازن حي، بين صاحب الأمر، وصاحب الرأي، والحفاظ على إمكانية التداول. وهكذا يجب أن نقرأ هذا الخلاف.

ويأتي **الخلاف الثالث** ، ليكرس الشورى في أروع معانيها، إذ تعتمد على تفسير ثاني مصادر التشريع أي السنة، ولا تعتمد على الهوى. فقد حدث في عهد الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه، أول نكوص عن الالتزام بأحد ثوابت المجتمع الإسلامي، وهو الزكاة، مما أذن ببداية زعزعة ذلك البناء الجديد، في زخم تحديات داخلية وخارجية متراكمة. فالزكاة إحدى قواعد الإسلام الخمس، كما أنها ركيزة الدولة الإسلامية الناشئة، والمساس بها يعد بالطبع ردة عن الدين، وتدميراً للمجتمع الفتي.

لكن الذي وقع، كان حواراً فقهيًا وسياسيًا، بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فكان الخليفة الأول يرى وجوب قتال مانعي الزكاة، بينما يرى عمر

ألا يحاربوا، متمسكًا بحديث رسول الله ﷺ : **«أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلــه إلاّ الله فمن قال لا إلــه إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلاّ بحقه، وحسابه على الله»**(١).

فبيَّن أبو بكر لعمر، أن الزكاة من حق لا إلــه إلا الله، قائلاً: (والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإنّ الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه). فقال عمر: «فوالله ما هو إلاّ أن رأيتُ الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق»(٢).

وأجمع القوم على رأي واحد، وتمت محاربة مانعي الزكاة، ونجا الإسلام في صدره من فتنة محققة.

إنها تجليات أخرى مرجعية لسماحة الحوار وآدابه، وانطلاق الخلاف الفقهي من نص القرآن أو السنة المطهرة، كمصدرين للتشريع قبل الإجماع.

ونأتي إلى **الخلاف الرابع**، حول أهم وأخطر مسألة من مسائل الحكم، ألا وهي حدود صلاحيات الحاكم، وضوابط المسؤولية، ووضع الفواصل الشرعية والقانونية بين المصالح الشخصية والأسرية، ومصالح عامة المسلمين. وهذا الصنف من الخلاف نراه مؤسسًا للفقه السياسي في الحضارة الإسلامية، نعتز بسبقنا فيه على الحضارات كافة، حتى وإن كان عنيفًا بالدرجة التي جرت ضمنها الأحداث. وإننا لسنا بصدد إفراد حادثة اغتيال عثمان رضي الله عنه بالحديث المطول، فالكتب التي خصصت للفتنة الكبرى كثيرة ومتنوعة(٣) بل

---

(١) - (٢) أخرجه البخاري في باب : الاعتصام بالكتاب والسنة .

(٣) انظر كتاب الفتنة الكبرى لطه حسين - نشر دار المعارف المصرية . وكتاب الفتنة الكبرى للدكتور هشام جعيط - صادر باللغة الفرنسية عن دار غاليمار سنة ١٩٨٩م .
LA GRANDE DISCORDE. HICHEM DJAIT GALLIMARD 1989.

تكفي إشارتنا لعمق الجدل الفقهي السياسي، الذي دار على ألسنة أسيادنا الصحابة الأجلاء في ذلك العهد، قبل وأثناء وبعد حادثة اغتيال ثالث الخلفاء رضي الله عنه. فقد أثيرت في ذلك الجدل أدق قضايا الفكر الاجتماعي والاقتصادي، وأكثر مشكلات الحكم تعقيداً وتشعباً، إن في تقويم تصرف ذي النورين عثمان رضي الله عنه، وإن في الحكم على تصرف مغتاليه. وإنك لظافر في هذا الجدل، بأبرز أسس علم الاجتماع والفلسفة السياسية، وفقه المعاملات، وحتى القانون الدستوري، مما لا شك، هيأ فكرياً لقيام الدولة الإسلامية، واستنادها إلى ثوابت قارة من المبادئ والمثل.

ويجيء الخلاف الفلسفي المتمثل في تباين الآراء والمصالح حول مبايعة الإمام علي رضي الله عنه، في غمرة الضجة الكبرى، التي أحاطت باغتيال عثمان رضي الله عنه، وهذا الخلاف مهما كان تأثيره، لم يخرج عن كونه يشتمل على جوانب شخصية وفقهية، أما الجوانب الشخصية فتتعلق مثلاً بحديث الإفك وما روي عن علي من أنه قال للنبي ﷺ : «النساء سواها كثير»، فشق ذلك على عائشة حسبما يذكره القرطبي في تفسيره[1] أما الجوانب الفقهية، فكتب التراجم والتفسير تزخر بها، وهي تطوف حول منزلة علي من الرسول ﷺ، والأحاديث المتواترة الواردة في هذا المعنى كثيرة، ومنها:

«من كنت مولاه فعلي مولاه»[2]، وقول الرسول ﷺ لعلي: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»**[3].

(١) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجزء الأول، عن طبعة دار الكتب المصرية، ص ٢٦٧.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) أخرجه البخاري.

وإن ما يهمنا استخلاصه من هذا الخلاف، هو أنه كان المنطلق الحقيقي الأول لمعالجة المسلمين لمسألة الإمامة، والقيادة، والزعامة، وقد نشأ عن ذلك الاختلاف المبارك شعور بمسؤولية المجتمع الإسلامي في اختيار الخليفة، وطرحت مشكلة الشرعية لأول مرة، حينما تم الاتفاق على وجود خمسة مناهج متباينة في اكتساب الشرعية:

(أ) ترك الأمر للأمة كما فعل الرسول ﷺ عندما سكت عن التعيين.

(ب) ممارسة الشورى بعد الجدل والاختلاف ثم الاتفاق، كما تم في السقيفة حين تعيين أبي بكر الصديق.

(ج) التعيين الصريح مثلما فعل أبو بكر حين أوكل بالخلافة لعمر رضي الله عنهما.

(د) اصطفاء ما سمي من بعد بأهل الحل والعقد، يتولون اختيار الخليفة، نيابة عن المسلمين مثلما وقع عشرات المرات في التاريخ الإسلامي.

(هـ) أخذ الإمامة بالقهر والغلبة، وهو أمر تم كذلك في فترات متعددة ومتباعدة من الحضارة الإسلامية، وقد أطنب فيه سهيل بن عبد الله التستري وابن خويز منداد[1].

ثم نأتي إلى **الخلاف السادس**، الأخطر والأكثر تأثيراً في مجرى الحضارة الإسلامية، على مدى قرون، وهو تأسيس الدولة الأموية، وتعويض الأساليب

---

(١) ورد ذكرهما في تفسير القرطبي بمناسبة الحديث عن الإمامة

التي ذكرناها، بأسلوب التوريث، ورغم ما قيل في التوريث من اعتماد مناهج الساسانيين والبيزنطيين، فإن له أصولاً في التنظيم القبلي الجاهلي العربي لا يمكن نكرانها، بفضل الارتباط الوثيق بين صلات الدم وصلات القوة لدى القبائل العربية الكبرى، وهو ما عبر عنه فيما بعد عبد الرحمن بن خلدون، بالعصبية. ونحن نميل للاعتقاد بأن التوريث ليس هو الخطر الذي هدد الحضارة الإسلامية، بل إن الخطر الفادح جاء من أن صاحب الأمر ،أصبح هو صاحب الرأي، وتمت ازدواجية كاملة بين من بيده السيف، ومن بيده الفكر.

ثم نخلص **للخلاف السابع** : انقسام المسلمين الأوائل ، قبيل وأثناء وعلى إثر انتصار معاوية ، إلى ثلاث فرق كبرى ، دون الجماعات الصغرى التي لا تحصى:

(١) فرقة المنتصرين لمعاوية، والذين بدأوا - فيما ذهبت إليه بعض الروايات - برفع المصاحف على الرماح، في موقعة صفين، مطالبين بالتحكيم، وانتهوا بعد مقتل علي رضي الله عنه، إلى بناة الدولة الإسلامية الجديدة، فانتقلت الخلافة، على أيديهم إلى ملك.

(٢) فرقة شيعة علي وآل البيت، التي تأسس معها المذهب الشيعي، فرافق كل تقلبات التاريخ الإسلامي ومنعرجاته، وتضاريسه، من سنة ٤٠هـ (٦٦١م) سنة مقتل علي رضي الله عنه، بيد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي، إلى يوم الناس هذا، بدون انقطاع.

(٣) فرقة الخوارج، التي تأسست على رفض التحكيم، ثم استحلت قتال علي، لقبوله بالتحكيم.

وهكذا فإن **الخلاف السابع**، كان هو الخلاف الأكبر، ومنه انبثق شيء

جديد كان مجهولاً في عهد الرسول الأعظم ﷺ، وفي عهد خلفائه الراشدين رضي الله عنهم، وهذا الأمر الجديد هو (السياسة) بالمعنى الذي أقره فلاسفة الإغريق القدامى، وخصوصاً أفلاطون وأرسطو وسقراط، وبالمعنى الذي نعرفه اليوم، أي أن الحضارة الإسلامية دخلت مرحلة بناء مؤسسة الدولة، بما فيها من خير وشر، فأما الخير العميم فكان بالطبع سرعة استشراء الإسلام في العالم الذي ما كان لينجز لولا قوة السلطان الرافعة لواء القرآن، وأما الشر الوخيم فكان الانشطار بين المؤسسة الرسمية، والصفوة الفكرية، وما نتج عنه من ضياع الحق بالقمع والتدجين، وشراء الضمائر ، بالرغم من أن منارات فكرية عديدة سلمت من الغرق، واستقلت بحريتها، ونالها الاضطهاد، فلم يطفئ لها نوراً.
﴿ **والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ (الصف : ٨).

هل أعدت حضارتنا ما استطاعت من قوة ؟

يتسم عصرنا الراهن بأنه عصر تحولات سريعة ومدوخة ومثيرة. اكتسحت الثورة التكنولوجية والاتصالية ، كل قطاعات حياتنا.

تغلغل العلم في اتجاهين كبيرين : اتجاه الفضاء الكوني الواسع اللامتناهي، واتجاه جزئيات الخلايا الدقيقة. إنهما مغامرتان نقرأ يوميًّا عن مداهما. (كولومبيا) المكوك الفضائي رحل في يوليو ١٩٩٤م إلى مداره حول الأرض يحمل سبعة باحثين من أمريكا، ومن اليابان، لدراسة الحياة البيولوجية، في حالة انعدام الجاذبية.. وأحدث اكتشاف طبي جاء من ماساشوستس، يتعلق بالتغلب على أسباب العقم، وزيادة نسبة الأمل في الإنجاب. وتتواصل ضمن هاتين

جديد كان مجهولاً في عهد الرسول الأعظم ﷺ، وفي عهد خلفائه الراشدين رضي الله عنهم، وهذا الأمر الجديد هو (السياسة) بالمعنى الذي أقره فلاسفة الإغريق القدامى، وخصوصاً أفلاطون وأرسطو وسقراط، وبالمعنى الذي نعرفه اليوم، أي أن الحضارة الإسلامية دخلت مرحلة بناء مؤسسة الدولة، بما فيها من خير وشر، فأما الخير العميم فكان بالطبع سرعة استشراء الإسلام في العالم الذي ما كان لينجز لولا قوة السلطان الرافعة لواء القرآن، وأما الشر الوخيم فكان الانشطار بين المؤسسة الرسمية، والصفوة الفكرية، وما نتج عنه من ضياع الحق بالقمع والتدجين، وشراء الضمائر ، بالرغم من أن منارات فكرية عديدة سلمت من الغرق، واستقلت بحريتها، ونالها الاضطهاد، فلم يطفئ لها نوراً. ﴿ **والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ (الصف : ٨).

هل أعدت حضارتنا ما استطاعت من قوة ؟

يتسم عصرنا الراهن بأنه عصر تحولات سريعة ومدوخة ومثيرة. اكتسحت الثورة التكنولوجية والاتصالية ، كل قطاعات حياتنا.

تغلغل العلم في اتجاهين كبيرين : اتجاه الفضاء الكوني الواسع اللامتناهي، واتجاه جزئيات الخلايا الدقيقة. إنهما مغامرتان نقرأ يوميًّا عن مداهما. (كولومبيا) المكوك الفضائي رحل في يوليو ١٩٩٤م إلى مداره حول الأرض يحمل سبعة باحثين من أمريكا، ومن اليابان، لدراسة الحياة البيولوجية، في حالة انعدام الجاذبية.. وأحدث اكتشاف طبي جاء من ماساشوستس، يتعلق بالتغلب على أسباب العقم، وزيادة نسبة الأمل في الإنجاب. وتتواصل ضمن هاتين

المغامرتين كذلك اكتشافات أجرام سماوية جديدة، ورصد التحولات المناخية من علو شاهق، والتعمق في برامج الجينات الوراثية DNA لدى الإنسان. وتوصل العلماء في مغامرة البيولوجيا إلى أن الإنسان يجد نفسه بإزاء عالمين متشابهين منسجمين: عالم الملكوت السماوي الشاسع، وعالم الخلايا الدقيقة غير المنظورة.

في هذا وذاك نظام عجيب، وميزان غريب. في الفضاء تدور الأفلاك وتتوالد، وتنتظم حركتها بمفعول الجاذبية المدهش، وفي جسم الإنسان خلايا ونوى الخلايا، تدور أيضًا كما الأفلاك، وتنتظم حركتها بمفعول عوامل الوراثة والتغذية والبيئة، ونوعية ردود الفعل إزاء الصدمات والتحولات الاجتماعية اليومية.

ولكن الذي وقع خلال هذه العشرية، هو أن العلم المحض وجد نفسه عاجزًا عن فهم لغز الكون والحياة بمفرده، بل وأكثر من ذلك أحس بخطر انفراد العلم بإدارة الكون، لأن العلم يكتشف ولا يفسر، يحلل ولا يبرّر، فاستنجد العلم بالدين. وكان أحدث مثال على ذلك هو قصور العلم عن الإحاطة بالهندسة الوراثية، والاحتياط لمجابهة هذا العالم الجديد، عالم البرمجة الجينية.

اكتشف العلماء أن حياة كل منا وحتى قبل أن نولد، تشبه (ديسكات) جاهزة في بعض خطوطها، توضع مع ميلادنا في جهاز كمبيوتر – أي الحياة – لتبوح بأسرارها وتسلك طريقها، وتعاني أمراضها وبلواها، وتنال رغباتها، وتحقق أمنياتها. واندهش العلماء لعظمة ما اكتشفوا. أليسوا بذلك يدركون مفهوم القضاء والقدر، المنصوص عليه في القرآن، ويتجلى معنى خلق الله للنفس البشرية، وإلهامها الخير والشر قبل أن توهب الحياة: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا

﴿ فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝ ﴾ (الشمس: ٧ – ١٠).

﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق: ٣).

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى: ٢–٣).

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ ﴾ (الرعد: ٢٦).

ثم إن الله تعالى يسبغ الأقدار نفسها على الكواكب، أي ذلك الفضاء الكوني الذي نحن منه ولسنا مركزه:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ (يونس: ٥).

إن الذي نراه في اكتشافات المراصد، والمخابر، ونتأمل صوراً له في المجلات العلمية الحديثة، ليعطينا أبعاداً جديدة لقراءة القرآن، ويفتح في وجوهنا بعض مغاليق الكتاب المكنون. وإنك ستحار إذا ما شاهدت إحدى هذه الصور الضوئية، فهل هي الكواكب في الفضاء تسبح، أم هي الخلية واحدة من خلايا الجسم بما لها من قلب وذرات تسبح هي الأخرى! إنك ستحار بين صورة أضخم ما وصلت إليه مراصد الإنسان، أي الفضاء الرحب اللامتناهي، وبين صورة أصغر ماالتقطته عدسة الميكروسكوب! لقاء غريب مدهش بين الأضخم والأصغر، بين ما لا نستطيع أن نراه بعيوننا لأنه كبير بعيد، وبين ما لا نستطيع أن نراه بعيوننا لأنه صغير دقيق! ألسنا محكومين بأن نتأمل فقط هذا العالم، الذي نعيش فيه! مع أن الله أراد لنا أن نتطلع إلى ما وراء عالم الشهادة:

﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ (الرحمن: ٣٣).

وللقارئ أن يسألني: ما الذي أردت إثارته بقولي هذا؟

إن غايتي هي إثارة علمائنا وفقهائنا حتى يتعمقوا في دراسة هذه الاكتشافات الخارقة الكثيرة، ويبحثوا فيها عما يدعّم الفكر القرآني، ويرسخ البعد الإسلامي، ويؤيد الرؤية الإيمانية.. فالقرآن نقرأه اليوم بعيون هذا العصر الذي تكثفت فيه الاكتشافات، بما يطابق القرآن، لا بما يشكك فيه، وكثرت حقائق العلم في الآفاق وفي أنفسنا، مما يجعلنا نفهم أكثر، تلك الإشارات الإلهية التي بثها سبحانه في كتابه الكريم.

إننا في قرننا الخامس عشر من الهجرة، نشهد على انتصار كاسح للإسلام في ساحة لم نكن نتوقعها، وهي ساحة العلم المجرد، فكلما فتح العلم بابًا بفضل اختراع أو اكتشاف، إلا وانبهرنا بالنور الإلهي يغمرنا، ونزداد إيمانًا، ويقوى تمسكنا بالإسلام.

لقد خسر الجاهليون الجدد معركة أخرى حاسمة على ساحة العلم التي اختاروها بأنفسهم، لتكون مقبرة للدين الحنيف، فإذا بهم يحفرون فيها قبور أوهامهم، وضلالاتهم وضياعاتهم. رفعوا شعار العلم واشتقوا منه العلمانية، واتخذوا كلام الله ودعاته هزوًا، حتى خسف الله بدعاويهم الأرض، وجعل سبحانه من كل خلقه آيات جلية مطهرة، تنطق بعظمته وتسبح لذاته العلية وتذكره بالعشي والإبكار.

ومن هذه الملاحظات العامة، نخلص للقول: إن المشروع الحضاري الإسلامي يملك هذا التميز الأساس في صراعه القادم مع الحضارات الأخرى، ألا وهو خضوع العلم لديه، للدين. فالعلم الإسلامي منذ نشأته كان ملتحمًا بالدين، متفرعًا عنه، ملتصقًا بالوحي، أمرنا الله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ

﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ (العنكبوت : ٢٠).

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣).

وأطلق الحق سبحانه وتعالى على ظواهر الطبيعة، وبيئة الإنسان، وأجزاء الفضاء الرحب، عبارة : «الآيات»، التي لا ترجمة لها في أية لغة على الإطلاق، ولا شبيه، فهي كلمة تجمع المحسوس والمجرد في آن واحد، وتوحي بأن مخلوقات الله لا تقتصر على الشكل المادي الملموس والمرئي، بل هي آيات أوجدها الله حتى يتدبرها قوم يعقلون ، أي يُعملون عقولهم إزاءها . وكان العلم بهذا المعنى في حضارة الإسلام، لا تفسيراً لظواهر الطبيعة، أو جسم الإنسان فحسب، بل عملية مستمرة ، غايتها إدماج الإنسان في الطبيعة ، وفي الكون: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

ويمكن أن نؤيد الرأي الكريم السائد، وهو أن الحضارة الإسلامية، هي التي سلمت مشعل العلوم إلى أوروبا، لتقوم هذه بنهضتها العلمية، فما من علم - كالطب والفلك والكيمياء والرياضيات والفيزياء والصيدلة - إلا وترك أبرز المصطلحات الأساسية متداولة بأصلها العربي في أوروبا إلى اليوم، وحتى الصناعات الأوروبية القائمة اليوم، احتفظت بمصطلحاتها عربية، يجهلها علماء أوروبا، وأغلب علماء المسلمين.. من ذلك كلمة ARSENAL أي مصنع بناء السفن، وهي تحريف بسيط لكلمة دار الصناعة، جلبها الصليبيون العائدون من

النسام، بعد أن لمسوا مستوى بناء السفن العربية في الموانئ المسلمة. والمصطلحات أكثر من أن تحصى، وهي معروفة، من الصفر، إلى الجبر، إلى الخوارزميات، إلى مواقع المجرات والكواكب، إلى أسماء الأدوية، ومسميات الأمراض... إلخ.

أما السر المكنون في أن أوروبا، رغم أنها أخذت مشعل العلوم عن الإسلام لم توفق إلى اليوم إلى إنجاز مجتمعات آمنة سعيدة، فذلك راجع إلى أن أوروبا ورثت عن المسلمين الوسائل، ولم ترث الغايات. أوروبا أخذت عن المسلمين الجانب المادي من العلوم، ولم تأخذ الجانب الروحي. ونحن حينما نقول اليوم: إن أوروبا – أو الغرب عامة – بلغت درجات عليا من التقدم، فإنما نقصد درجات عليا من التحكم في وسائل الإنتاج، والصناعة، ولا نقصد درجات عليا من الحضارة، فالحضارة هي الإنسان قبل كل شيء، والإنسان في المجتمعات الأوروبية، إنسان شقي، مستعبد[١].

إن بلوغ أوروبا قدراً متقدماً من التكنولوجيا والتصنيع وعلوم الاتصال والإنتاج، وفّر للمجتمع الأوروبي قدرة على الاستهلاك والإنتاج، فتحول الفرد هناك من مواطن حر إلى مجرد أداة إنتاج واستهلاك، أي إلى (برغي) مجهول في ماكينة جبارة، عمياء، صماء، لا ترحم.

وإذا أردت الاقتناع بهذه الحقيقة، فعليك استجلاء الأرقام، لتجد أن السويد، وفرنسا، وألمانيا، تأتي في مقدمة بلدان العالم، من حيث عدد المنتحرين (في فرنسا وحدها إحدى عشر ألف حالة وفاة عقب انتحار عام ١٩٩٢م، بعدد

---

(١) هذا لم نقله نحن ؛ بل قاله المفكر الكبير وأستاذ علم الاجتماع في جامعة السوربون (ألان توران) في كتابه : نقد الحداثة، عن دار فايار للنشر ، سنة ١٩٨٩م (ALAIN TOURAINE) ، CRITIQUE DE LAMODERNITE

ضحايا حوادث الطرقات نفسها في هذه البلاد).

وخذ أرقام تعاطي المخدرات، وأرقام جرائم العنف والاغتصاب، والسفاح، لتكتشف أن هذه المجتمعات رغم امتلاكها للوسائل، فإن الغايات مفقودة، بل لا تجتمع الوسائل بالغايات إلا في الإسلام، وفي الإسلام وحده.

المواطن الأوروبي تعلق بحاكمية السوق، ففقد كل مقومات الإنسانية فيه، ليخرج من رق الإقطاع أو رق الكنيسة، ويدخل في رق المؤسسة المالية أو المؤسسة السياسية. المطلوب منه هو أن يفكر بحرية بل يفكر كيف يكون منتجاً، وكيف يكون ناخباً، وكيف يكون مديناً للبنوك، وكيف يكون مستهلكاً !

خرجت العبودية لديه من الباب لتعود من الشباك.. ثم هل تعلمون أن إحدى معارك المجتمعات الأوروبية اليوم، وأكبرها، هي معركته ضد الربا، الذي حرمه الإسلام؟! صدرت كتب لا تحصى، وخصصت مقالات ودراسات كثيرة في فرنسا وحدها، لتؤكد أن العائلة الفرنسية أصبحت رهينة قروض المصارف، أي ضحية الربا. كل مواطن فرنسي مدين للمصارف بما يجعله يشتغل خمسة أعوام بدون أجر، لتسديد ديونه ذات الفوائد المتصاعدة.

هو الربا ، ولكنهم لا يسمونه هكذا ، وصفوة المجتمع الفرنسي تقاومه وتطالب بتحريمه قانوناً لا شرعاً ، بينما القرآن حسم هذه المظلمة منذ أربعة عشر قرناً.

فماذا فعل العلم المحض لدرء هذه الأخطار عن المجتمعات الأوروبية ؟ نعم العلم وفر السيارة وجهاز «السكانير»، وخلاط المطبخ، والكمبيوتر، لكنه لم يوفر السعادة، لا للفرد الذي استعبد، وصودر رزقه، ولا للأسرة التي تفجرت وانفطرت كالحب والنوى، ولا للمجتمع الذي سار بدون هدى نحو حتفه.

الفرد عبد للمصارف، وللمؤسسة السياسية، والإعلامية، وهو ضحيتها ووقود نارها، ولا يساوي فلساً. تحدد له المصارف دخله الضئيل لكي يظل حيًّا، لا لكي يصبح سعيداً، بعد أن تقتطع سبعين بالمائة من مرتبه، وترهن بيته وأثاثه، وسيارته، فهو لا يملك شيئًا في الحقيقة، ثم تقتطع الدولة مما بقي من مرتبه نسبة النصف (ضرائب مباشرة، وضرائب غير مباشرة، تتمثل في ألعاب الحظ وغلاء المعيشة...) ثم يَفرض عليه الإعلام الإقطاعي بواسطة الإشهار، ما يجب عليه أن يستهلكه (أي أن يقتنيه بقروض إضافية) ثم توهمه المؤسسة السياسية (أحزاب، نقابات)، أنه مواطن حر في اختيار من يمثله في المجالس المحلية والتشريعية.

ثم إن هذه التنينات الثلاثة:

* تنين المؤسسة المصرفية،
* تنين المؤسسة السياسية،
* تنين المؤسسة الإعلامية،

اجتمعت في تحالفات عتيدة مريبة (لعل أحسن مثل لها المافيا الإيطالية، التي تجمع رئيس المصرف ورئيس الحكومة ورئيس تحرير الصحيفة)، تحالفت هذه المؤسسات لتسد طريق النجاة في وجه المواطن الأوروبي، حيث أعلنت أن المجتمع لائكي ولا ديني، فعزلت الكنيسة في دور عبادة، وإقامة طقوس لا تأثير لها في المجتمع، وهذا هو ما يريد الجاهليون المعاصرون في أمتنا المسلمة أن ينفذوه، حتى «نلتحق بركب التقدم الغربي...!» وهم يعلنون حاكمية التنوير أو يزينون لنا «بحبوحة العيش» لدى أهل أوروبا، وهم في الحقيقة يصدون عن سبيل الله، ويقاتلون في سبيل الطاغوت، ويضلون البلاد والعباد، وإنهم إذا ما

رفعوا شعار العلمانية – المشتق زوراً وبهتانًا من العلم – إنما هم يخرجون للأمة الإسلامية عجلاً له خوار ، مثلما أخرج السامري لبني إسرائيل ، لكي يزيغ بهم عن عبادة الله عز وجل، ولعل أبلغ رد على هؤلاء – أصحاب العجل المحدثين – ما جاء في سورة طه:

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾

(طه:٩٨).

وتأتي عبارة العلم هنا في القرآن الحكيم، للرد على العلمانية المزيفة، فالعلم اقترن في تاريخ الإسلام بالوحي الإلهي، لدرجة أن لفظة حكيم كانت إلى زمن قريب تطلق على الطبيب، في أرجاء العالم الإسلامي كافة. إن الذي أصاب المسلمين هو التفريط في هذه العبقرية الحضارية الفريدة، الرابطة بين العلم والدين، وبين العقل والوحي، ومثال علم الطب، نموذج صالح للاعتبار. والكثير من أطبائنا الحكماء المسلمين، يأسفون لهذه القطيعة بين الطب والإيمان[١] وللهبوط الذي أصاب رسالة الطب، حينما تحولت إلى صناعة، يوجه إليها الطلبة حسب معدلات الثانوية العامة، فأصبح الطب علمًا بلا حكمة، إلا من رحم ربك من ذلك المعدن الإنساني الباقي، والذي لم يجر لاهثًا وراء ربح مادي سريع، وجاه دنيوي زائل. وقد أحسن الدكتور زيدان تفكيراً عندما قرن ذلك الهبوط المؤسف في الحكمة، بهبوط أعم وأشمل في العلاقات الاجتماعية، بين المسلمين، وهبوط في سلم القيم الحضارية، التي تشكل نسيج هويتهم، وهبوط في مستوى التعامل الأخلاقي، بين أفراد الأمة الإسلامية وشعوبها. فلا غرو إذن

(١) نموذج من هذا الأسف ، رسالة الدكتور صفوان زيدان ، المنشورة بصحيفة الشرق القطرية ، يوم ١٧ أبريل ١٩٩٤م .

أن يتحول الطب إلى مهنة عادية، والعلاج إلى صناعة، والاستشفاء إلى تجارة، حتى إن الاستثمار بمعناه المادي الربوي، دخل إلى هذا المجال الشريف، فأخضعه إلى نواميس السوق والعرض، والطلب، مما جعل مجهود الحكومات في العلاج الرخيص، أو المجاني، يصبح كأنه ملجأ للصدقة والزكاة، أمام المستشفيات ذات النجوم الخمسة الاستثمارية.

وأستسمح القراء الكرام أن أستعيد معهم بعض معالم الطب الإسلامي وتاريخه الحافل بالأمجاد، فهو الطب الذي غذاه الرسول الكريم ﷺ بما يلزم من سمو روحي، ورفعة أخلاقية، جعلته – منذ عهد طبيب الرسول والصحابة حارث بن كلدة الثقفي – أداة مثلى لإنقاذ الجسد والروح، وعلاج الألم والريبة بواسطة الدواء والإيمان معًا. وهذا هو سر حكمة الطب الإسلامي: اكتشاف عظيم للنفس البشرية، التي ألهمها الله سبحانه فجورها وتقواها، وأعلن في السورة نفسها أنه قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها.

كما أن المسلمين هم أول من أعاد بعث قسم أبقراط، ونجد له فصلاً وافيًا عند أبي أصيبعة في كتابه: «عيون الأنباء لطبقات الأطباء»، وثبت أن أوروبا لم تعرف قسم أبقراط إلا عن طريق هذا الكتاب الإسلامي في القرن الثالث عشر المسيحي، ثم هلت على العالم أنوار بن سهل الطبري، والرازي، وابن سينا، وسواهم حتى استوت في الدنيا مدرسة الحكمة، بعد أن كانت أوروبا قبل التقائها بالثقافة الإسلامية الأندلسية، تعتبر المرض حلولاً للشيطان في جسم الإنسان، تعالجه بالحرق والمباخر، والتعاويذ.

وجاءت حكمة الأطباء المسلمين، من كونهم فقهاء، قبل التعمق في الطب، فكان الفقه الإسلامي، يسبق العلم، بإرساء الأسس الأخلاقية، من فضيلة،

ورحمة، وصبر، وإيثار، ونصيحة، وتعفف.

يقول الشيخ الرئيس ابن سينا في مقدمة كتاب النجاة: «إن أفضل الحركات الصلاة، وأمثل السكنات الصيام، وأرفع البرّ الصدقة، وأزكى السير الاحتمال، ولن تخلص النفس عن الدرن، ما التفتت إلى قيل وقال، ومناقشة وجدال، وانفعلت بحال من الأحوال، وخير العمل ما صدر عن خالص نية، وخير النية ما ينفرج عن جناب علم، والحكمة أم الفضائل، ومعرفة الله أول الأوائل...».

وأروع ما في هذه التعريفات الكريمة للطب، ما جاء على لسان رشيد الدين علي بن خليفة، حيث قال: «الأمراض لها أعمار، والعلاج يحتاج إلى مساعدة الأقدار، وأكثر صناعة الطب حدث وتخمين، وقلّما فيه اليقين، وجزاها القياس والتجربة، لا السفسطة وحب الغلبة، ونتيجتها حفظ الصحة، إن كانت موجودة، وردّها إن كانت مفقودة.. ويتميز الفاعل عن الجاهل، والمجدّ عن المتكاسل، والعامل بمقتضى القياس والتجربة، عن المختال في اقتناء المال، وعلو المرتبة...».

ويضيف القلقشندي درة حكمة، لهذه التعريفات في القرن السابع الهجري، حيث يبدع في الإيجاز والبيان قائلاً: «يشترط في الطبيب أن يتحلى بالإيمان، وشرعة التقوى». أما ثابت بن قرة الحراني، عالم الفلك والرياضيات والطب والفلسفة، الذي نبغ في هذه الفنون في عهد المعتضد العباسي، فيقول: «إن راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة النفس في قلة الآثام، وراحة القلب في قلة الاهتمام، وراحة اللسان في قلة الكلام...».

ثم إلى جانب شرف الفضيلة، فإن صفوة من حكماء الطب الإسلامي ضحوا بحياتهم أو بحرياتهم، من أجل مواقف وقفوها، وفي سبيل كلمة حق قالوها في حضرة سلطان جائر، فقتل منهم من قتل، وسجن منهم من سجن، ومات منهم من مات، في الفاقة والنسيان والإهمال، ومن بين هؤلاء الحكماء المجاهدين: أبو بكر الرازي، وعلي بن رضوان، والحسن بن الهيثم، وإسحاق بن عمران، ولسان الدين بن الخطيب، وابن ماجة، ونجيب الدين السمرقندي، وسواهم أكثر في جميع العهود، رحمهم الله، إن كانوا قضوا، ونصرهم الله إن كانوا بيننا، وجزاهم عن الإسلام كل خير.

ولعل القارئ الكريم يريد مزيد التعمق في هذه المعاني الجليلة، خاصة وشبابنا المسلم، يتعطش لمعرفة تراثه العلمي الغني والواسع، أرجو أن يفوز بتلك المعرفة من ينابيعها، أي بالرجوع إلى مؤلفات القمم، التي ذكرت بعضها في هذا الفصل القصير، وإذا تعذر عليه ذلك، فليعد إلى كتب أوجزت هذه العلوم الإسلامية الطبية للقارئ المعاصر، منها كتاب تاريخ الطب الإسلامي، للأستاذ الدكتور سليم عمار، أستاذ الطب النفسي بالجامعة التونسية، وكتاب المستشرق الألماني المنصف يوحنا كرستوف بيرغل بعنوان: الوجه المزدوج للطب في الحضارة الإسلامية، وغيرهما من المؤلفات، وليتأمل القارئ الحصيف كذلك بعض ما بلغه أطباء علماء مسلمون، يعملون في جامعات أوروبية وأمريكية من شأو بعيد، ليدرك أننا لسنا أيتام علم وحكمة، بل إننا أمة تصدّر عقولها وتفيد مجتمعات غيرها.

الاقتصاد الإسلامي يؤسس على الفضائل

شهدت السنوات الأخيرة في أمتنا، رواج فكر علماني سفسطائي، وجد له منظرين، ووجد له بخاصة مستثمرين، فالكلمة السحرية التي أصبح يستعملها أعداء النهج الإسلامي، هي كلمة اقتصاد، والدعوى هي أن الخيار الإسلامي لا برنامج اقتصادي لديه، وثانيًا: لا يكون الاقتصاد إلا عالميًّا . فكيف نصنع في دوامة الاقتصاد العالمي؟

هاتان في الواقع حيلتان من قبعة المشعوذين الجدد، كالأرنب والحمامة الذين يخرجهما المهرج للجمهور، وهما حجتان واهيتان، اعتمد نجاحهما لا على عبقرية الجاهليين، بل على جهل قسم من شباب الإسلام، بأسرار الاقتصاد ومحركاته وثوابته، مضافٌ إلى عدم إحاطة بالتراث الفكري الاقتصادي الإسلامي.

وعلى شبابنا إذا أراد توخي النجاعة، أن لا يقع في الدائرة التي يحددها أعداء الإسلام، في أي جدل حول الاقتصاد، بل أن يجلبوا هؤلاء إلى الدائرة التي حددها الإسلام، وذلك لاختلاف تام بين المنظور الاقصادي الجاهلي الرأسمالي السائد، وبين المنظور الاقتصادي الإسلامي المنشود ، فهما خطان لا يلتقيان.

نحن ننطلق من أسس أخلاقية وفضائل إنسانية، وهم ينطلقون من منطق القوة العمياء، والربح السريع، والاستغلال الفاحش.

إن اقتصادهم يقوم على قانون الغاب، ويبيح كل أشكال الإبادة والقتل،

ويصب في خزائن تجار الموت، وسماسرة السلاح، وقادة العصابات المنظمة، والجريمة المنسقة. كل الهرم الاقتصادي الدولي، مقام على الجور، قاعدته نهب ثروات المستضعفين، وإذلال الشعوب الفقيرة، وبث الفرقة بينها، وتوكيل الوكلاء على مصائرها، وإقرار سيادة الدول الكبرى على طاقاتها، وأسعار موادها الأولية.. أما قمة الهرم، فتمثله المصارف العملاقة، بفخاخ قروضها، وفوائدها، يعلوها جميعًا عرش البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي. كل الهرم مؤسس على أيديولوجية مواصلة الاستخراب، وتغيير أشكال النهب والسلب، وتزويق وجه الباطل بمساحيق النظام الاقتصادي العالمي الجديد، من أجل تسويق الاعتقاد بأن العالم يخضع لقانون أبدي خالد هو الظلم، وتحكم الدول الأخطبوطية الكبرى في مصائر الشعوب.

هذه هي الدائرة الفكرية التي يريدون أن يجرونا إليها ويحسبون أننا نسكت عن الكلام المباح، ونقر لهم بأننا عاجزون عن الخوض في الاقتصاد المكنى بالعالمي، بينما الحكمة هي أن نشك في أسس هذا الاقتصاد المفروض، ونفند بواعثه الأيديولوجية، ونفضح مروجيه السماسرة، انطلاقًا من فقه الاقتصاد الإسلامي، الذي لا حل سواه، حتى نحمي مصالحنا الحيوية، ونضع مستقبل أطفالنا تحت مظلة ظليلة.

إن الواقع الراهن يثبت أن ما نسميه مقتضيات الاقتصاد العالمي، ما هو إلا تكريس الهيمنة على خيرات الأرض، من طرف عشرين بالمائة من سكانها، ولهذه الأقلية وسائل سخرتها لاستمرار المظلمة، وآخر تلك الوسائل ما فرضته من ضريبة الكربون على إنتاج البلاد المسلمة من النفط، حتى تخضع لضغوط

السوق، وتقبل بأسعار منخفضة لهذه المادة الحيوية، لا تستجيب لضرورات التنمية في مجتمعاتها.. وآخر تلك الوسائل، هذه القرارات الأممية القاضية بفرض حصارات على بلدان مسلمة، لأسباب شتى حتى تنهار مقدراتها وتنحل الروابط الإسلامية القائمة بينها، وبين جيرانها، ورهن مستقبل أجيالها لعقود طويلة قادمة.

كما أن آخر تلك الوسائل، الشروع في الترويج لمشروع الشرق الأوسط الاقتصادي، دون رفع الجور التاريخي المسلط على شعب مسلم، هو الشعب الفلسطيني، وعلى حساب بلدان عربية مسلمة، لا تزال بعض أراضيها محتلة جهاراً نهاراً من طرف إسرائيل، رغم أنف قرارات مجلس الأمن الداعية لتحريرها.. وينادي المروجون للسوق الشرق أوسطية، بإذلال الشعوب المسلمة وحصرها في دور الأيدي العاملة، وإهانة بعض الدول العربية، بتسخيرها للتمويل، كأنما هي خزائن مال، وليست شعوباً أصيلة، لها مجدها، ولها رجالها، ثم تخصيص دور إسرائيل في هذا المثلث، بجعلها العقل التكنولوجي المدبر، والقلب الاقتصادي الحي، وما نحن إلا الأذرع الرخيصة، والخزينة المليئة، والأرض المفتوحة، والسوق المضمونة! وذلك يعني أن دار الإسلام ستكون لإسرائيل، وحماتها، أذرعًا تصنع، وبطونًا تبلع، وصيرفيًّا يدفع! فياله من مآل خزي، ومصير هزيمة، أهون منهما أن يبدلنا الله سبحانه بأمة غيرنا، ولا تكون مثلنا، وذلك هو الوعد الذي أنذر به القرآن أممًا هانت على نفسها، وضربت على مصائرها المذلة، فهانت على أعدائها والمتربصين بها.

والسؤال هو : بماذا نواجه هذا الاقتصاد ؟ وما هو بديلنا ؟

أول ما يجب علينا فعله ، هو تفكيك آليات ذلك النظام الخادع، وفهم محركاته، والتدبر في الأيدي التي تديره في الظل، في مكاتب الشركات الكبرى متعددة الجنسيات، ومكاتب سماسرة السلاح، ومن تحت هذه الأشباح توجد الأحزاب والحكومات في أوروبا وأمريكا، ومن تحتها قاعات تحرير التلفزيونات والصحف والإذاعات.

ثلاثة مستويات تسيِّر دفة الاقتصاد العالمي : صاحب المال، وصاحب القرار السياسي، ثم صاحب الرأي العام.. ونحن كشعوب وصفت بأنها سائرة نحو النمو، نقع في هذه الكماشة، وبين فكيها.

وثاني ما يجب علينا فعله، بعد الفهم، أن نرسي قاعدة قوية للاقتصاد الإسلامي، بفضل عمل متعمق رصين، يصل بين المثل الأعلى، وحياتنا اليوم، وبين النظرية القرآنية، والتطبيق في عصرنا الحاضر. وأخطر ما سيلاقيه علماؤنا وخبراؤنا المسلمون في هذه المرحلة، هو حجة الجاهليين والمتغربين القائلة: بأننا بعيدون بعد كوكب المشتري، عن عصر الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن زمن نزول القرآن. وهي حجة باطلة، لأن رجل الاقتصاد الإسلامي يأخذ من روح القرآن وجوهر السنة، الأسس الأخلاقية الخالدة، ويطوعها ببصيرته وإيمانه وعلمه، حتى تلبس مشاكل عصرنا، ومعضلات واقعنا، شأنه شأن المربي في عالم التربية الحديثة، والطبيب في ميدان الطب، والإعلامي عندما يؤسلم الإعلام.

إن النكبة الحقيقية، هي أساسًا في عدم توفيق المسلمين اليوم، لابتكار اقتصاد إسلامي، وأصل هذه النكبة سببان رئيسان : الأول جهل لا إرادي بالقيم

الإسلامية في الاقتصاد، مما جعلنا نتخبط في الأنماط الواردة علينا، من شرق وغرب، حتى ضاع جيل كامل من الأمة المسلمة، في جدل أيديولوجي عقيم، بين أنصار الشيوعية، ودعاة الرأسمالية، وانقسمت شعوبنا إلى عربات مجرورة من طرف المعسكر الماركسي، وعربات مجرورة من طرف المعسكر الحر، وتحملنا انتقال الجدل الاقتصادي، إلى خنادق سياسية، تمركز فيها هؤلاء وأولئك، وبلغ بنا الحال إلى الحرب الباردة المنسوخة عن أصلها، الحرب الباردة بين العملاقين، فانقسمت صفوتنا إلى تقدمية ورجعية، وذهب كل فريق إلى شطط : الأول إلى شطط التصنيع الثقيل، والثاني إلى شطط التداين ورهن الأعناق لدى البنك الدولي للإنشاء وإعادة التعمير، ولم تنج إلا دول مسلمة قليلة، حاولت الأخذ من هذا وذاك، وكادت ترسم سياسة اقتصادية غير منحازة ووطنية لو لا مؤامرات دولية.

أما السبب الثاني، فهو انعدام التشاور والتنسيق والتكامل ، وهو سبب داخلي وخارجي، لسنا بصدد تعداد منطلقاته، وهي معروفة، مما جعل سياستنا الاقتصادية، لا تقوى على تحقيق استقلال قرارها، ولا تقوى خاصة على تحقيق اكتفائها الذاتي، لا في التغذية، ولا في الصناعات الخفيفة المرافقة للزراعة.

ويأتي السبب الثالث، مكملاً لهذه المعوقات، وهو الداء العضال، المتمثل في القطيعة بين المؤسسة التربوية، والمؤسسة الاقتصادية. القطيعة بين المدرسة والمجتمع، حيث ظلت مدارسنا، على مدى جيل تخرج العاطلين، وتدفع بالدفعات البشرية نحو المقاهي، والشوارع، كأن المدرسة كوكب صناعي يدور في فضاء رحب، لا تربطه بأرض الواقع رابطة، وتوالت في جل دولنا برامج الإصلاح، تجبّ برامج الإصلاح، ويتناوب على تخطيط مناهجنا التربوية

«خبراء» و «متعاونون» من دول أوروبا، ومن أمريكا، ومن روسيا، بينما الحل الأوحد هو الخيار الأصيل النابع من إسلامنا، ومن هويتنا، والمنصبّ في عصرنا، والمتكلم بلساننا العربي، قبل أية لغة أجنبية، فلا تغيير لاختياراتنا الاقتصادية، دون البداية بالتربية، التي هي رحم الاقتصاد، وفيه ينشأ جنين الاستقلال، والهوية والنهضة. فكل بنيان نبنيه على غير أسسه، إنما هو آيل للسقوط، مقدّر عليه الانهيار، وجلّت كلمة الله تعالى عن حضارة قوم عاد، التي أقاموها شامخة ، لكن بدون التقوى – أي بدون الاستناد إلى أصول الإسلام – .

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (الشعراء: ١٢٨ – ١٣٢).

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: ١٠٩).

إن مبدأ الانطلاق من شريعة الله في الاقتصاد، هو تبين التضاد الكامل، بين المقصد الإسلامي، والمقصد الغربي – وهو الطاغي – فبينما يخضع المقصد الإسلامي، إلى نظرية الخير والشر، في شؤون الإنتاج والبيع، والشراء، والكسب، والإنشاء كلها، يخضع المقصد الغربي، إلى نظرية الربح والخسارة، في تنظيم أمور السوق كلها.. وفي حين يرتكز المقصد الإسلامي، على عقيدة الحق والباطل في كل ما يتعلق بإيجاد الثروة، وتنميتها، يرتكز المقصد الغربي القائم حاليًا، على عقيدة التوسع، والتكثيف، ومضاعفة الكم.

ولعله من اليسير علينا، إذا ما أرخنا لأمتنا الإسلامية، وللغرب الأوروبي، أو الغرب الأمريكي اليوم، أن نتأمل في ما انتهت إليه حضارتنا وحضارتهم.

لقد كانت الحروب الصليبية، التي دامت قرنين كاملين، تجسيماً، عن طريق العدوان والحرب، لمنظور الغرب الاقتصادي، أي الربح والغنم السريعان، بواسطة التوسع والإبادة، وكانت كذلك أيضًا عمليات غزو القارة الأمريكية، منذ ١٤٩٢م على أيدي كرستوف كولمبو، ثم كانت كذلك الحملات الاستخرابية (المعبر عنها بالاستعمارية!) بداية من حلول جيوش نابليون بالقاهرة يوم ٢٤ يوليو ١٧٩٨، ومروراً باحتلال الشام والمغرب الإسلامي، والهند، وأندونيسيا، تحت شعار توسع السوق الأوروبية - غير الموحدة آنذاك - إلى يوم الناس هذا، حيث نعاني من ويلات العقيدة نفسها بطرق أخرى، أي من انعكاسات قانون السوق.

ثم انظر إلى آثار عقيدتنا الإسلامية، التي أفشلت الحروب الصليبية بسلاح الإيمان والجهاد أولاً، ثم بتمسك المسلمين بالثوابت الاقتصادية. فكم من حصار لمدن مسلمة، دام شهوراً، ثم اندحر على أعقابه، وانهزم فيه المحاصِرُون، بسبب النظام الاقتصادي المتبع، من الإيثار والصدقة، وتكثيف الإنتاج والقناعة، بل وابتكار اقتصاد حرب إسلامي متكامل، مثل نهاية حصار أنطاكية وأسر حاكمها بوهيموند الصليبي سنة ١١٠٠م، وانتصار المسلمين في الموصل سنة ١١٢٧م، واستيلاء عماد الدين زنكي على حلب سنة ١١٢٨م، إلى آخر هذه السلسلة المشرقة، التي أدى فيها الاقتصاد الإسلامي رسالته الجهادية.

وكان مصير المعتدين الصليبيين الهزيمة، والعودة إلى نقطة البداية، بعد قرنين، فانتهت الصليبية بموت ملك فرنسا القديس لويس في قرطاج سنة ١٢٧٠م، وأسر ملوكها، مثل ريتشارد قلب الأسد، وكانت نتيجة الحملات الصليبية، انتقال النظام الاقتصادي الإسلامي في بعض مظاهره إلى أوروبا، مثل الزراعات، وتنظيم الأسواق، والمسالك التجارية. وبعد قرون من ذلك العهد، انهزمت جيوش نابليون في مصر، وكانت المقاومة الاقتصادية المسلمة، للدخيل المحتل، وجهًا من وجوه الصمود، مثلما جاء في مذكرات أحد المؤرخين الفرنسيين، المشاركين في الحملة Vivant-Denon (فيفان دونان) وكما أكده الجبرتي في تاريخه، ولعله من الرموز الناطقة بعزة الإسلام، أن يتسلل نابليون هاربًا ناجيًا برأسه من مصر، تاركًا نائبه كليبر، الذي قتل على يد الشهيد الإسلامي سليمان الحلبي، وتولى الجنرال مينو عوضًا عنه قيادة جيش الاحتلال، فانحاز إلى جانب المسلمين، وأشهر إسلامه وأصبح اسمه عبد الله مينو.

وهكذا انهارت آخر الحملات الصليبية، وأولى الحملات الاستخرابية، إلى أن تقاسمت دول أوروبا المشرق والمغرب الإسلاميين، بداية من مطلع القرن التاسع عشر، وأول ما صنعته، كان تخريب الاقتصاد الإسلامي، بالتوازي مع مقاومة دين الأمة ولغتها، ومعالم حضارتها، وتم بسرعة تذييل قوت الشعوب، وربط اقتصادها باقتصاديات مركزية أوروبية، وتمادت هذه الحالة من التبعية المادية والمعنوية، حوالي قرن، إلى أن نالت بلداننا استقلالاتها الإدارية والعسكرية، ولكنها في أغلبها ظلت تعاني التشابك القوي، بين اقتصادها، واقتصاد أوروبا وأمريكا وأحيانًا روسيا، وظلت كذلك تعاني زعزعة قواعدها الدينية واللغوية، وارتجاج ثقة المسلمين في هويتهم وحضارتهم، ولعلها إلى اليوم

تحمل أوزار ضعفها ووهنها، وتبحث عن الخلاص.

ثم يكفي مقارنة حضارة الإسلام، بالحضارة الغربية، في مثل تاريخي واحد، لتعرف مدى قوتنا، ومدى هشاشتها. وهذا المثل هو كما أسلفنا الوجود الصليبي في مشرقنا الإسلامي من ١٠٩٥م إلى ١٢٧٠م، واحتوى على ثماني حملات مدججة بالسلاح والمال، وتعاونت فيها أوروبا كلها، واستعملت أساليب الإبادة والتهجير والتنصير كلها، لكنها باءت بالهزيمة النكراء، ولم تؤسس دويلة، ولم تترك أثرًا عمرانيًا، أو معلمًا ثقافيًا، بل غنم الصليبيون النهضة الإسلامية، لبناء مدنهم ،وتكوين جامعاتهم، حتى إن أول مستشفى أوروبي، نشأ بعد أن شهد الصليبيون مستشفى دمشق، ومصحة شيزر.

وبالمقابل تأمَّل وجود المسلمين في الأندلس : ثمانية قرون كاملة، من الحضارة، عمادها اقتصاد راسخ، وعدالة متسامحة، ومعمار أصيل، وأدب رفيع، وطب مزدهر، حتى إن نظام الري القرطبي، لا يزال معمولاً به في إسبانيا إلى اليوم.

فشتان بين حضارة الإسلام، القائمة على تسخير الوسائل، من أجل الغايات، وبين حضارة الغرب، القائمة على تسخير الوسائل، لمضاعفة الوسائل بلا غايات.

ونحن حينما ندعو إلى الرجوع إلى جوهر الاقتصاد الإسلامي ، فإننا لا ندعي الإحاطة بهذا الاختصاص، بل إن غايتنا تحريك سواكن فقهاء الاقتصاد الإسلامي حتى ييسروا هذا العلم، ويستنبطوا أسبابه، ويثروا روافده، وقد شرع المسلمون في هذا العمل الصالح، فصدرت الدراسات الجامعية، حول

المصارف الربوية، وفضحت دراسات أخرى مؤامرات تحديد النسل، وكشفت دسائس إباحة الإجهاض، وكل ما من شأنه تشويه دار الإسلام، وتحجيم قوتها، وخضد شوكتها.

وأول ما يجب الرجوع إليه، هو أصل عبارة الاقتصاد، التي جاءت من (ق ص د) أي المنهج السويّ، ووجوب النية، بعكس عبارة Economy التي اشتقت من التوفير.

فالجذور الإسلامية للكلمة، انغرست إذن في تربة الدين، والفضيلة، والأخلاق، باشتراط النية، وفرضية استقامة النهج، بينما جاءت الكلمة الغربية من مبدأ جمع المال، وتوفيره، وكنز الثروة.

وقد ذكر الله في كتابه المجيد مشتقات القصد ست مرات، هي كالآتي:

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ (لقمان: ١٩).

والمعنى هو: اليسير المتعارف أي عدم الإسراف، ولكن أيضاً إخضاع المشي إلى سلوك أخلاقي، يوجب التواضع والتعفف..

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾(لقمان:٣٢).

المقتصد في أداء الشكر والحمد لله، بعد أن نجاه ربه إلى البر، أي القائم بواجب الشكر ،دون تجاوز ذلك السلوك، إلى إيفاء حق الله كاملاً من العرفان.

ويفيد معنى الكفاية والتقليل.

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ ﴾ (التوبة : ٤٢).

هنا يعني المولى عز وجل أولئك المنافقين الذين يتأخرون عن الجهاد، أما لو دعاهم الرسول ﷺ إلى عرض قريب، أو سفر قاصد (بمعنى له قصد وغاية) لاتبعوه، ويلاحظ هنا استعمال القاصد بمفهوم الغاية.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (فاطر : ٣٢).

تلاحظ هنا الدرجات الثلاث، التي وضع فيها الله سبحانه ورثة الكتاب، ممن اصطفاهم، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات. ويحدد الله منزلة المقتصد كدرجة بين ظلم النفس وهي رزيلة، وبين السبق بالخيرات، وهي فضيلة، وتفيد الوسطية السلوكية، حيث لا عقاب الأول ينالها، ولا ثواب الثالث.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة : ٦٦).

هنا يتعرض الله سبحانه لأهل الكتاب، ويطنب الشيخ الشهيد سيد قطب في شرح معنى الأمة المقتصدة، غير المسرفة على نفسها، قائلاً رحمه الله: «يبدوا من خلال الآية، أن الإيمان والتقوى، وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية... لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده – وإن كان هو المقدم وهو الأدوم – ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا، ويحقق جزاء العاجلة، وفرة ونماءً، وحسن توزيع، وكفاية، يرسمها في صورة حسية، تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله: ﴿ **لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾(١).

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الثاني، الأجزاء ٥ – ٧، صفحة ٩٢١، طبعة دار الشروق.

ثم نأتي للآية التي ذكرت القصد بذلك المعنى الجليل الذي عرضناه:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ (النحل : ٩) .

ويفيد القصد هنا: تبيان المنهاج، ورسمه على النية، وهي أمانة أوكلها سبحانه لذاته العليا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، ونحن ندرك أبعاد تلك الأمانة، فنجعل من قصد السبيل – ما نعبر عنه اليوم بالاقتصاد – وسيلة لبلوغ غاية سامية كريمة، ألا وهي تحقيق إنسانية الإنسان، ودعم أواصره بخالقه، وإعادة ترميم الجسور التي انهدمت، أو كادت، بينه وبين السعادة، وبينه وبين عالم الغيب، إذ الشهادة مقرونة بالغيب.

هذا هو السر المكنون في الجهاد الاقتصادي الإسلامي، وهو الذي ينبغي أن يعلو على الأرقام، والجداول، والحسابات، والأرباح، ومعدلات الإنتاج، ومسالك التوزيع، وإلا كان مآلنا مآل الأمم الخاسرة، مهما كان دخلها، وهل تجدون تفسيراً لشعب مثل شعب السويد، حقق رقمين لهما عبرة:

- حقق رابع معدل في الإنتاج الوطني الخام في العالم .
- حقق أول نسبة في الانتحار لدى الشباب، ما بين الخامسة عشر والخامسة والعشرين سنة، وذلك في عام ١٩٩٢م[١] .

يقوم جوهر الاقتصاد الإسلامي، على ثوابت خالدة، صلح بها حال المسلمين في فجر الإسلام وعزه، ويصلح بها حالهم اليوم، إذا أعملوا فيها حكمة الاجتهاد، وأخضعوا لها معاملاتهم، وهذه الثوابت توجز

---

(١) مجلد حالة العالم ، الصادر عن دار (لادكوفرت) الفرنسية ، سنة ١٩٩٣م .

في المبادئ التاليــة :

الملكيــة : العقيدة المؤسسة للاقتصاد الإسلامي، هي الإيمان بأن ملكية العالم لله وحده سبحانه، وما الإنســان إلا مؤتمن عليه : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ (المائدة : ١٢٠).

وهنا يراجع الفصل الذي أفردناه، للخلافة، والأمانة، في هذا الكتاب.. وملكية الله للعالم، تجعل من رسالة الإنسان المستخلف المؤتمن، رسالة صيانة وحفاظ وتوريث للثروات، التي في السماوات والأرض، وقد توصل كل علماء الاقتصاد، والبيئة، والفيزياء، والاجتماع، حتى في الغرب نفسه، إلى أن معضلات الإنسان المعاصر، من التلوث، إلى تخريب الطبيعة، تعود إلى اعتقاد الإنسان، بأنه سيد الكون، وما الأحزاب الخضراء الصاعدة في الغرب، إلا دعوة لهذا النبع الصافي، لوضع الإنسان في منزلته الحقيقية من الكون، أي أنه جزء منه، لا مالكه الأوحد، وهو أساس الفكر الاقتصادي المسلم.

أما الملكية الصغيرة أي حق التصرف، وحق التوريث، فقد بينهما القرآن الكريم والسنة المطهرة بما لا يدع مجالاً للتأويل، ويبقى الإسلام حضارة اقتصادية متكاملة، امتازت بذلك عن الأديان السابقة، وحتى النظريات اللاحقة.

الإنفــاق : من أبدع ما عرف به الله سبحانه المؤمن، صفة الإنفــاق مما رزق، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة : ٣) .

وذلك في أول آيات أول سورة بعد الفاتحة ، حيث وضع الله عز شأنه ، شروط إيمان المؤمن:

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (البقرة : ١ – ٣) .

وصفة المؤمن إذن، هي عدم حبس المال، وهي قاعدة قرآنية، وقاعدة أساسية في علم الاقتصاد الحديث، إذ أن دور السيولة في مجرى الحياة، هو الضامن للانتعاش الاقتصادي، وما نسميه اليوم: تنمية. وقد ربط الله بين الإيمان والإنفاق لجعل المسؤولية الاقتصادية للمسلم، موازية لمسؤوليته الإيمانية: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ لأن الإنسان المسلم ليس متلقيًا للعمل التنموي، بل هو باعثه، والمسؤول عنه، والمطالب به، أي وسيلته وغايته في آن واحد.

وقدر الله درجة الإنفاق فوضعها بين التبذير والتقتير، أي في الدرجة الوسطى بين رزيلتين، وكل درجة وسطى هي فضيلة – عدم غل اليد إلى العنق، وعدم بسطها كل البسط – وهذه الوسطية هي العقيدة الأساسية في النهج الاقتصادي الإسلامي، لأنها تقف ضد الحرية المطلقة المتوحشة للرأسمالية، وضد التقييد القاتل المشل للشيوعية.

أليس هذا هو ما وصل إليه علماء الاقتصاد، في العصر الراهن، بعد انهيار الماركسية، وإعادة النظر في الليبرالية؟

المـــال : إن الإنفاق في القرآن الكريم مقترن بالمال، أي بعصب الاقتصاد، فأعلن سبحانه أن المال مال الله: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾ (النور: ٣٣).

ثم جعل صفة حب المال، صفة شائنة، تقصر صاحبها على حياة البهائم،

وتحط من إنسانيته.. وجعل صفة جمع المال، وتعداده صفة، ترخص من قدر المرء، وتزيغه عن سواء السبيل، حتى ولو ظن أن ماله أخلده، كما جاء في آيات مبثوثة في الكتاب المجيد. ثم إن الله سبحانه ألغى الفوارق، بين غني، وفقير، حيث لا يشفع المال لصاحبه يوم القيامة، ولا يفيده في الدنيا، إلا متى زكى وتصدق، وأنفق حلالاً، كما توعد الله الذين يأكلون المال الحرام، أو يأكلون أموال الناس بالباطل، أو أموال اليتامى، في عديد من السور النيرة، مثل سورة البقرة، والنساء، والروم، وتوج الفكر القرآني، هذه النظرة الأخلاقية السامية، لوظيفة المال، بأن سخره للجهاد، إلى جانب النفس:

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ (الصف: ١١).

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ (التوبة: ٨٨).

ولم يكتف القرآن بسن هذه القيم العليا الخالدة، بل فصل سبل صرف المال تفصيلاً عجيباً، لم يفرط في جزئية، فقدر توريث المال، وقنن كفالة الأيتام، وعين الصدقات، وحدد الزكاة، وبيّن الخراج والجزية، وأنذر الذين ينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله.. وكل ذلك، وهب للإنسانية منهاجاً للكسب والإنفاق، يقع داخل إطار أخلاقي فذّ، من التعامل الاقتصادي والاجتماعي، ولم نجد له نظيراً في الأديان الأخرى على الإطلاق، وتحت هذه الراية الفريدة، سبق القرآن كافة المدارس الاقتصادية الحديثة، برفضه انحصار الثروة في

الطبقات، أو قيام دولة المال على حساب مجموع الأمة:

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾

(الحشر:٧) .

الـــرزق : أعظم سمة للفكر الاقتصادي الإسلامي، ربطه المحكم، بين الكسب والرزق الحلال، فقد زخر القرآن، وحفلت السنة، بهذه المعاني فالله هو الرزاق، وعطاؤه يُنْعَتُ بالطيبات، والإنفاق يجري من هذا الرزق، أي أن معنى الإنفاق يكتسي قيمة الدين، وإعادة الخير إلى صاحبه، مما يكبح جماح الطغيان، بفتنة المال، فالمؤمن يكسب رزقًا وهبه إياه الله تعالى، وإنفاقه في وجوه الخير، هو إرجاع الحق إلى صاحب الحق. ويتدخل عالم الغيب في عالم الشهادة، في هذا الميدان، حيث يعلن الله سبحانه أن:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(الطلاق : ٢ – ٣).

ويقرن سبحانه لفظتي الحلال والطيب، ليضع حدوده التي لا يتجاوزها المؤمن.. ثم أوضحت السنة النبوية شراكة الناس في مصادر الرزق الأساسية، وعدم انفراد نفر أو جماعة بها: قال الرسول الكريم ﷺ: «**الناس شركاء في ثلاث: المـــاء، والكـلأ ، والنـــار**» ، (رواه صاحب مصابيح السنة في

الحسان، وابن داود في التاج، وابن ماجه في حديث أبي هريرة، وإسناده صحيح عن سبل السلام)[1].

الأجـــر : ترددت عبارة الأجر في القرآن الكريم، بدرجتين: درجة الثواب المتاح لفاعل الخير المؤمن، ودرجة المقابل المادي لعمل دنيوي.

مثال الدرجة الأولى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

(فاطر:٧).

ومثال الدرجة الثانية :

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ (القصص:٢٥).

وبهاتين الدرجتين في القرآن، يكتسب الأجر معنى روحيًا صرفًا، ومعنى ماديًا محسوسًا، فيحافظ الأجر في الإسلام على الصفتين معًا، ويشحن المصطلح العربي بطاقة دينية أخلاقية، لا تجدها في سواه من الأديان، ولا في سوى العربية من اللغات. فالله سبحانه قدر الأجر للشهادة في سبيله، وللصبر ،والإحسان، والنجدة، والوفاء، والتقوى، والعفو، والإصلاح، والتصدق، بدون منّ أو أذى، إلى غير هذه الصفات الحميدة.. ومن عبقرية المنهاج الاقتصادي الإسلامي، أننا نجد تلك الصفات نفسها، مطلوبة لدى الإنسان في تعامله التجاري والاجتماعي عمومًا، كأنما القرآن، يرجو تنظير الإنسان في عبادته، بالإنسان في تجارته،

---

(١) الحديث رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه عن ابن عباس بلفظ : « المسلمون شركاء ... » . انظر صحيح سنن ابن ماجه ج ٢ ، ص ٦٤ .

باشتراط الصفات نفسها، في هذا وذاك، وهنا يحضر مثال (الميزان) في الذهن، وقد أطلق القرآن المجيد مصطلح الميزان على العدل الإلهي المطلق، وعلى الجهاز الذي يستعمل للوزن، والمعنيان نفساهما أعطيا لكلمتي القسط والقسطاس.

التجارة : ينزل القرآن التجارة ، منزلة المعاملة مع الله سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(الصف : ١٠) .

ثم يستعمل القرآن الكلمة نفسها بمعنى المعاملة مع الناس، بل جمعها مع اللهو، داعيًا الترفع عنها:

﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾ (الجمعة : ١١) .

وأخيرًا يستعمل القرآن كلمة التجارة، بمعنى ثالث محايد، وهو المعنى الاقتصادي المتعارف إلى اليوم:

﴿ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (النساء : ٢٩) .

ثم مضى القرآن ومضت السنة في بيان هذه المعاني الثلاثة، بتطهير التجارة من الربا، والغش، والاحتكار، والرشوة، والترف، والطغيان، والاستغلال، وذلك بمجموعة من الآيات القرآنية، والأحاديث القدسية والنبوية، معلومة لدى كل من عكف على بحث المنهاج الاقتصادي الإسلامي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٢٧٨ – ٢٧٩) .

هذه بعض القيم التي تجعلها حضارة الإسلام عدتها، لخوض صراع الحضارات إذا لم يكن بد من هذا الصراع المعلن، وهي قيم تقتضي، أن يكون الراعي مسؤولاً عن تطبيقها، بعد سنها، لا أن نملأ بها خطبنا للتمويه، ثم ينفذ عكسها.

وقد ضرب لنا الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أرقى أمثلة المسؤولية – والمسؤولية الاقتصادية بالذات – حين قال :

« والله لئن بقيت لأوتين الراعي بجبل صنعاء، حظه من مال بيت المسلمين، وهو يرعى مكانه » (مسند الإمام أحمد).

وخلاصة قولنا : إن الاقتصاد الذي اعتبره الجاهلون حجة علينا ، إنما هو حجة لنا، وإن البرامج الاقتصادية التي يدعي أعداؤنا افتقادنا لها، إنما هي ميراثنا من الحضارة الإسلامية، بفضله انتشرت رسالة الإسلام، وستزداد انتشاراً. كل القضيـة أننا شربنا من غير حياضنا، وأننا وردنا من غير نهرنا، فحسبنا أن قدرنا – الاقتصادي – هو أن نبقى تابعين خانعين، في حين أن في أيدينا مفاتيح نهضتنا، وأسرار تقدمنا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الاستخلاف والأمانة

إذا بحثنا عن الأصل القديم الأول للمشروع الحضاري في الإسلام، فإننا نعجز تماماً، عن قطع الصلة، بين السياسة والفقه، بل وحتى بين السياسة والوحي. فأول ما يصادف المرء هو القرآن الكريم، وتأتي الآيتان (٣٠) من سورة البقرة و (٧٢) من سورة الأحزاب، كإعلان مباشر واضح، لما نسميه اليوم بالمسألة السياسية. وتضع الآيتان تبارك قائلهما، القضية السياسية في منزلتها الإسلامية الأصلية، أي تحدد ببيان القرآن، وإعجازه، التعريف الإسلامي:

(١) لماهية الإنسان فرداً ومجتمعاً.

(٢) لرسالته التي اؤتمن عليها.

ونورد فيما يلي الآيتين، اللتين نعتبرهما الينبوعين الأولين، لكل ما ورد بعدهما وحولهما من آيات، تشرح، وتوضح المقصد الإلهي، لرسم صورة المجتمع الإسلامي كما يريده الله سبحانه:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢).

صدق الله العظيم.

أيُّ تعريف أبلغ، وأي كلام أعمق يمكن أن يضع الإنسان في منزلته التي

أنزله الله إياها بهاتين الآيتين ؟! فسورة البقرة ، حددت في مطلع القرآن الكريم ، معنى الاستخلاف في الأرض ، ومنها نشأ مفهوم الخلافة :

﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ . وعندما رد الملائكة بالتعبير عن الاستغراب في شكل سؤال واستفهام: ﴿ **قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ ، جاء جواب المولى عزّ وجل مُزيلاً لكل استغراب ، معلنًا إرادته العليا ، فارضًا حكمته السامية ، بقوله: ﴿ **قال إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ .

وبهذا الجزم الإلهي دخلت قضية الاستخلاف حوزة الغيب، أي تجاوزت منطقة الجدل الملائكي ، لتصبح أول ملف رباني يودعه الله في تلك الحوزة الغيبية التي يعلمها الله وحده، ولا يعلمها خلقه ، ملائكةً كانوا أم بشرًا.

ونستخلص نحن، أن استخلاف الإنسان في الأرض، هو من إرادة الله وحده، وأن خلافة الإنسان من الله، قدره لا يحيد عنه.

فالمعنى الجليل لعبارة (الخليفة)، تحدد وانضبط في تلك الآية الكريمة، بشكل لا يقبل التحريف والزيغ، وهو المعنى، الذي لا بد أن نرجع إليه - أي نتخذه مرجعًا - كلما أردنا الخوض في مسألة السياسة الإسلامية، ونحن إذا ما تخلينا عن هذا الأصل في القرآن - أي معنى الخلافة - فلن نكون مسلمين، بل ندخل بوعي منا، أو بلا وعي، فضاءات فكرية وسياسية، وتاريخية لأمم أخرى غير مسلمة، وفي مناطق نفوذ ثقافية غربية أساسًا، سيطرت لمدة قرنين تقريبًا، على عقولنا، وأخضعت شعوبنا وصفوتها، لعمل دؤوب وطويل وصبور، جرّدها من أصولها المرجعية، وأوهمها بأن صلاتها بجذورها انقطعت، وأن عليها أن تبني على أسس غير أسسها، وأن تنطلق من منطلقات غير منطلقاتها. وذلك

ما تم لهذه القوى الصليبية والصهيونية الغازية – أو كاد يتم – لولا يقظة الأمة من تلك الغفوة المشلة، التي دامت قرنين، وخاصة منذ أن وطأ الجيش الصليبي الفرنسي شواطئ مصر بقيادة (نابليون بونابرت) يوم الثاني من يوليو ١٧٩٨م في الحملة الصليبية التاسعة، إلى غاية السنوات الأخيرة من القرن العشرين.

إن مسألة الخلافة حُسمت في هذه الآية :

﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ فهو إذن قرار إلهي حاسم لا يسع الإنسان – في الأرض – إلا أن يتدبره ويطوع الواقع على مقاسه، لا أن يطوع تلك الخلافة على مقاس الواقع، مثلما رأينا خلال قرون في الدول المسلمة.

وهكذا – وبتلك الطاعة الواجبة لله تعالى – تتحول الدول المسلمة إلى دول إسلامية، أي تجتاز الحد الفاصل، بين دول تجمع في كنفها مسلمين، مثلما هي الحال اليوم، إلى دول تؤسس على إرادة الله، وتعاليم دينه القويم، كما يود المسلمون أن تكون.

ومن الخلافة نبدأ، لأن الله عز وجل بدأ بإقرارها في الآية المذكورة في أول سورة قرآنية بعد الفاتحة.

فاستخلاف الإنسان، يعني تحميله جملة من الفضائل، كالمسؤولية والحرية والإخلاص لله، والتلاؤم مع نواميسه، وسننه، حتى تنشأ فكرة الخلافة، لتغذية تلك الفضائل، وإعلاء شأنها، وإعلان الولاء لله وحده، دون الأرباب المزيفين.

وإذا ما استعرضنا كل المفردات القرآنية المنبثقة عن الخلافة، تأكدنا من خلال المعنى المعطى للعبارة، أبعادها الأخلاقية والروحية والسياسية. جاء في تفسير

مفردات ألفاظ القرآن الكريم لسميح عاطف الدين ما يلي :

« خلف فلان فلانًا قام بالأمر عنه، والخلافة النيابة عن الغير، وجاءت في القرآن لتشريف المستخلف... استخلف الله أولياءه في الأرض :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (فاطر : ٣٩) .

﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ (هود : ٥٧) .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنعام : ١٦٥) .

والخلائف جمع خليفة ، أما خلفاء فجمع خليف :

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ (يونس : ٧٣) .

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ (الأعراف : ٦٩) .

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾
(الأعراف : ٧٤) .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ (النمل : ٦٢) .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾
(النور : ٥٥) .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾ (الأنعام: ١٣٣)

﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾
(النور: ٥٥) .

﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾
(الأعراف: ١٢٩) .

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ ﴾

(ص :٢٦) .

ومن اليسير على المؤمن قارئ هذه الآيات النورانية ، أن يستخلص الحكمة الإلهية المستوفاة من معنى الخلافة والاستخلاف . ففي كل الآيات ترد العبارة المشتقة من الأصل (خ ل ف) مقترنة بالتمكين في الأرض ، أي بما نسميه اليوم ممارسة الحكم ، أو القيام بشؤون السلطة .

فبينما انقلب في عصرنا الراهن مفهوم الحكم، إلى التسلط والاستبداد، ظل ذلك الجوهر القرآني على معناه الأصلي، أي ربط الخلافة بالحكمة، وإقامة العدل، بل وجعل سبحانه، الاستخلاف وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهو إذن جزاء أوفى للمؤمنين، الذين يعملون الصالحات، كما أن الله سبحانه جعل نزع الاستخلاف من قوم، شكلاً من أشكال الإنذار والعقاب .

فيتبين لنا ما وهبه القرآن للخلافة من ارتفاع بالإنسان، والمجتمع، إلى منزلة الحق والعدل، والشعور بالمسؤولية، وأداء الأمانة، وقد اشترط سبحانه على نبيه داود قائلاً له :

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ ﴾

(ص :٢٦)، فاقترن الاستخلاف، لا بالحكم المطلق، بل بالحكم الحق، وبذلك تنتفي الخلافة تلقائيًا إذا ما انتفى الحكم بالحق، فهما صنوان متلازمان . كما وطد سبحانه الصلة بين الخلافة، وبين إجابة المضطر ،وكشف السوء (آية ٦٢ من سورة النمل) .

وهكذا تتجلى الخلافة، كما أرادها الله في كتابه العزيز، أنموذجًا فريدًا من

الحكم السياسي، لم يأت في غير القرآن، ولم يشهد له الناس في التاريخ مثيلاً لدى الأمم الأخرى. فالحضارات الكبرى المتتالية، كالفرعونية، والإغريقية، والفينيقية، والكنعانية، والرومانية، كانت تقتسم العالم وتتصارع من أجل التوسع والبقاء، لكنها لم تهتد إلى ما حدده القرآن الكريم، وانفرد به دون الأديان، وإلى ما شرعت في تجسيمه الحضارة الإسلامية في صدر الإسلام، دون الحضارات الأخرى.

فهل يمكن أن نبوأ في الأرض – أي أن نستعيد دورنا الريادي في قيادة الحضارة من جديد – بدون الرجوع الجريء إلى الجوهر السياسي في الإسلام ألا وهو استخلاف الله لنا في الأرض بإرادته عز وجل؟

وهل يمكن أن نتدبر شؤون الحكم في بلداننا وشعوبنا، بدون أن نعيد الروح لمفهوم الاستخلاف، فنقيم مؤسسات الدول الإسلامية، على هذا الأصل الكريم الفريد، وحسب الشروط والفضائل، والقيم، والمثل، التي أودعها الله في الخلافة، وخص بها أمته الإسلامية، دون سواها؟

ونأتي بعد ذلك إلى الآية ٧٢ من سورة الأحزاب التي رسمت الخطوط الكبرى، للميثاق المعقود بين الخالق والمخلوق، كأنما أراد الله سبحانه توضيح معنى الاستخلاف، بإضفاء مفهوم الأمانة عليه.. والأمانة هي كما نعلم، أساس كل ميثاق – أو عقد، حسب تعبير فلاسفة السياسة في فرنسا القرن الثامن عشر(١).

---

(١) راجع (العقد الاجتماعي) للمفكر الفرنسي جان جاك روسو.
LE CONTRAT SOCIAL - JEAN JACQUES ROUSSEAU

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال﴾.

توجد تلك الأمانة لدى مالكها الأول، الذي هو الله سبحانه، وأراد أن يعرضها لا أن يفرضها، فلو أراد فرضها دون انتظار استجابة لفرضها، لكن الله عرضها، أي تقدم بها برحمته الإلهية، وانتظر موقفًا من السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان – وهو مخير في ذلك القرار الحاسم – لكن المولى عز وجل، عقب على القبول الإنساني، للأمانة بأن الإنسان كان ظلومًا جهولاً.

إن الصفتين اللتين نعت بهما الله سبحانه الإنسان (الظلم والجهل) هما أصل كل نقص بشري، وسبب مباشر لأغلب مصائبه في الأرض، ويقتضي حمل الأمانة المعروضة عليه، أن يسعى لإصلاح هاتين النقيصتين، بالعمل السياسي ضمن مجتمع مسلم. فلاحظوا معي، أن اختيار الله سبحانه للظلم والجهل، هو الإقرار بالنقائص السياسية، أو الاجتماعية أساسًا، دون النقائص الفردية الذاتية الخاصة بكل إنسان، مثل الكفر، والنفاق، والأنانية، واللؤم.

أراد الله أن يعدد نقيصتين، لا يتسم بهما فرد واحد، وإنما مجتمع بأسره. فالظلم نقيض العدل، وهما مفهومان سياسيان، أي لن يستقيم معنى الظلم، وكذلك معنى العدل، إلا ضمن مجتمع سياسي، والمعنى نفسه لعبارة الجهل نقيض العلم، فهما أيضًا مفهومان سياسيان، حيث لا يظلم، ولا يجهل إنسان، وهو بمفرده معزول عن الآخرين من أبناء جلدته، وإنما يصح معنى الظلم – أو نقيضه العدل – ومعنى الجهل – أو نقيضه العلم – في مجتمع متكون من

خلاياه العائلية، والقبلية، والمهنية.

وتأتي آيات عدة لتعطينا مفاتيح ما انغلق من أسرار الأمانة، كما عرّفها الله تبارك وتعالى:

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (النساء: ٥٨).

﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ (الأنفال: ٢٧).

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨).

وكذلك يتضح البعد الأخلاقي والإيماني، لعبارة الأمانة، فيربط سبحانه بينهما وبين رعاية العهد، ويعلمنا بأنها موصولة بعلاقة الإنسان بالله والرسول، وأن عدم خيانة الأمانة، بمثابة عدم خيانة الله والرسول، وتكمل سورة النساء هذه الأبعاد الفاضلة بأمر الله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾.

وينطبق هذا المفهوم القرآني على الأمانة التي ذكرها سبحانه في الآية ٧٢ من سورة الأحزاب، والتي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فابين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، ويضيف سبحانه مبيّنًا، أنه كان ظلومًا جهولاً، في قبوله للأمانة، والعزم على حملها.

ألسنا من خلال الآيتين (آية الخلافة وآية الأمانة) نعبر عن صميم قضية الحكم في الإسلام، فتبدو المسألة السياسية واضحة يسيرة طيعة، صفت وتجلت أمام أعيننا في جوهرها الأول المكنون، أي في القرآن الكريم، كتاب الله المرسل

للمسلمين، وجاءت السنة النبوية، وتبعها السلوك الأمثل للخلفاء الراشدين، ثم التحق الفقهاء والعلماء ورثة الأنبياء، لتأكيد هذا التعريف القرآني المؤسس للفكر السياسي الإسلامي، والقائم كما بيّنا على الثنائية الروحية والأخلاقية والتعاقدية: الاستخلاف، والأمانة ؟!

ونخلص إلى القول : بأن مشروعنا الحضاري الإسلامي ، هو الفريد المتميز، بانطلاقه من هاتين القيمتين الخالدتين، الاستخلاف والأمانة، وهو الوحيد الذي شكل منظومته السياسية، وأرسى قواعده الاجتماعية والثقافية، على هاتين المثلين الأعليين. ثم إنه كما أسلفنا، مشروع تحقق، أي أننا لا يمكن أن نشك في إمكانية تنزيله على واقعنا الراهن، كما نزله الرسول الأمين ﷺ وخلفاؤه من بعده على واقعهم، وكما تحقق منه الجزء الأوفر، أثناء الدول الإسلامية عبر التاريخ، بفضل اجتماع الكلمة، والتمكن من أسباب القوة والمنعة.. وتعرّض المسلمون كذلك لعهود من الضعف والانحلال والتشرذم، وكان سببها الرئيس التفريط في القيمتين المذكورتين - الاستخلاف والأمانة - بل بتعبير أدق : كان سبب تلك العهود المظلمة، تحول الاستخلاف والأمانة من منزلة الحكم، إلى منزلة المعارضة، وانتقالها كما سنرى من خانة السلطة إلى خانة الفكر المقموع.

لكن الاستخلاف والأمانة كقيمتين متلازمتين، ظلتا موجودتين في التراث السياسي والثقافي الإسلامي: أحيانًا في موقع المسؤولية وقيادة الدولة، وبالتحام الراعي مع الرعية، وأحيانًا في موقع الريادة الفكرية، حين تضل السبل، بأولي الأمر، وتشتبه المسالك.

قل اللهم مالك الملك

إذا كان قيام الإسلام على التوحيد، أي الإيمان بوحدانية الله تبارك وتعالى، فإنه قضى بوحدانية مصدر التشريع. والوحدانية المصدرية نابعة من الوحدانية الإلهية، فلا شرك بالله، كشرط أول لإسلام المسلم، ولا تعدد لمصادر القانون، كشرط أول لبناء المجتمع الإسلامي. وبذلك يكون التوحيد الأكبر، أي التسليم بأن الله أحد، هو شرط إسلام الفرد في سريرته، ويكون التوحيد الثاني، أي الاعتقاد بأن الحكم لله وحده، هو شرط إسلام الفرد في عشيرته وفي مجتمعه.

وتتعدد في القرآن الكريم آيات تحريم اتخاذ الأرباب من دون الله، وتحريم عبادة الطاغوت:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ (الكهف: ١٠٢).

﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة: ٤٤).

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

ذلك هو معنى الانفراد بالألوهية، الذي سنه القرآن لإعلان مساواة المؤمنين، فلا يحق لبعضهم اتخاذ بعض أربابًا أو أولياء، ولا يحق لبعضهم خشية بعض.

ثم جاءت آيات انفراد المولى عز وجل بالتشريع، واختصاصه وحده بسن القانون الأعلى للحكم:

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ١٠٦).

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ (الأعراف: ٣).

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة: ٤٤).

وفي آية أخرى ﴿ **هم الظالمون** ﴾، وفي آية ثالثة ﴿ **هم الفاسقون** ﴾، وزاد القرآن بيانًا، فوضع منهجين واضحين للحكم هما:

(١) حتمية حكم الله.

(٢) عقلانية شريعة الله.

١ – سن الله سبحانه حتمية القبول بحكم الله، لكي يكون الإيمان إيمانًا كاملاً، في قوله تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥)

ويرتبط الإيمان الحقيقي هنا، بتحكيم الشريعة فيما شجر بين الناس، بنفس مطهرة من الحرج.

٢ – أما توافق الشريعة مع العقل، فتنص عليه الآية الكريمة:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ

﴿لَايَعۡلَمُونَ﴾ (الجاثية : ١٨) .

فجاءت الشريعة هنا مناقضة للأهواء، أي منطلقة من خالق الإنسان، العالم به، المسيِّر للكون، بعيداً عن تقلبات الإنسان، وتحولات المجتمعات، كأنما هي الدر المكنون الذي لا تعتريه الشوائب.

وإذا نظرنا اليوم ونحن في قلب القرن الخامس عشر هجري، إلى أغلب الانحرافات التي حادت بالمجتمعات الإسلامية عن الطريق المستقيم، وأخلت بتوازنها، وزعزعت مواطن قوتها، لوجدنا أن أسبابها الجوهرية تعود إلى عدم اتباع المسلمين للشريعة من الأمر، واتباعهم لأهواء الذين لا يعلمون، حتى ولو ادعوا عكس ذلك نطقًا، أو ألبسوا سلوكهم الباطل بكلمات حق:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (الصف : ٢ - ٣) . وكان ذلك الانقطاع عن الشريعة، هو السبب المباشر للكوارث التي أصابت الأمة الإسلامية، منذ الفتنة الكبرى، إلى فقدان الأندلس، ومنذ انهيار بغداد تحت أقدام هولاكو، إلى سقوط الخلافة العثمانية.

وبعكس ذلك، لم تكتب للأمة صفحاتها البيضاء الناصعة، وهي بحمد الله أكثر من صفحات الانكسار والانحدار، إلا حينما تولى أمر الأمة رجال عضوا على شريعة الله بالنواجذ، وبدأوا بتطبيقها على أنفسهم وقبائلهم، فكان لهم النصر، ومكنهم الله من العنفوان والقوة منذ فجر الإسلام ، وعهد الرسول الكريم ﷺ وعهد خلفائه الراشدين، والخلافات المتتابعة، التي قامت بواجب الجهاد، وحققت الفتوحات، إلى غاية الخلافة العثمانية، حيث امتدت دار الإسلام إلى جزء عظيم من الأرض، يتحكم في أخطر المضايق، ويسود أهم

البحار، ويملك أبرز الثروات والطاقات.. «وفي تلك العهود التي كانت الدولة العثمانية تمد ظلالها على امبراطوريتها الشاسعة، في شرق وشمال أوروبا، وفي غرب وجنوب آسيا، كان العربي يسير من عدن على المحيط الهندي، صاعداً إلى الشام، ولبنان، والأناضول، وآسيا الصغرى، ومن ثم يسير إلى بلغاريا، ورومانيا، ويوغسلافيا، والمجر، حتى يصل بعد ذلك إلى أسوار مدينة (فينّا) عاصمة النمسا، وفي كل هذه الرحلة لا يحتاج العثماني والعربي حمل جواز سفر، ولا هوية، لأنه كان يمشي في بلاده، وتحت علمها، إلى أن يصل إلى حوض نهر الداوب في فينّا...»(١).

فالله سبحانه هو مالك الملك، وهو صاحب الخلق والأمر، مما جعل الحضارة الإسلامية في أعز تجلياتها، حضارة تؤمن بالغيب، حسب الشرط الذي اشترطه القرآن في المؤمنين، عند الآيات الأولى من سورة البقرة، أولى سور الكتاب بعد الفاتحة:

﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب...﴾

فلا إسلام إلا بالإيمان بالغيب. يقول مالك بن نبي رحمه الله:

«إن الحضارة لا تنبعث كما هو ثابت تاريخيًّا إلا بالعقيدة الدينية، فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجًا. فكأنما قدِّر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيداً عن حقبته، فحينما يكتشف حقيقة حياته كاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء، التي تشكل له مركز الرؤية، وتتفاعل معها عبقريته، وهذا لا يتحقق دون معرفة الوحي..».

---

(١) عبد الله بلخير يتذكر، صحيفة الشرق الأوسط، ١٩٨٥/١١/٢٥م.

ولسائل أن يسأل ، وهو محق في سؤاله :

- ما دام المسلمون، انطلقوا في بناء حضارتهم من إيمان بالغيب والوحي، وما داموا، أقروا بأن الحاكمية لله، فما الذي حاد في بعض مراحل تاريخهم، بتلك الحضارة إلى الانحدار؟ وما الذي حوّل مسارهم أحيانًا إلى فتن، وجعلهم في القرن التاسع عشر مسيحي، مؤهلين لقبول الاحتلال الصليبي، حسب عبارة مالك بن نبي؟ ما الذي تسبب في تغير بعض أساليب الحكم لدى المسلمين، إلى استبداد فج، لا يختلف عن أي استبداد، مسيحيًا كان، أم يهوديًا، أم بوذيًا، أم شيوعيًا، أم فاشيًا؟

الجواب صعب ومتشعب، إذا ما تعمقنا في الجزئيات التاريخية كلها ، وملابساتها دينيًا، وسياسيًا، وثقافيًا، واقتصاديًا، ولكن الجواب واضح، إذا ما أدركنا، أن الأسباب نفسها، تؤدي إلى النتائج نفسها، من قيام الفتنة الكبرى، إلى سقوط بغداد، ومن ضياع الأندلس، إلى انهيار الخلافة العثمانية، ومن مقتل حجر بن عدي، إلى مقتل سيد قطب.

إن السبب يكاد يكون واحداً : القطيعة بين النموذج، وتطبيقه . . نعم. ظل النموذج المحمدي، وفروعه لدى خلفائه الراشدين، نموذجًا حيًا في الأذهان، ولكن تعطل التطبيق. الهوة اتسعت بين المثل الأعلى، والواقع المعاش . . بين المثال الحي في الضمائر، وبين جهد العقل البشري، لتنفيذه في الميدان.

بل الأخطر أن الخطاب الإسلامي كرّس تلك القطيعة، حينما أراد عكس ذلك، أي تطبيق الشريعة بالاجتهاد، وإعمال العقل . . فهذا الفكر، تصدى للتغريب والتنصير، والاحتلال بسلاح المثال، وهو سلاح قوي وناجع، لكنه لم يتصد لإنتاج فقه متجدد، يضع ذلك المثال موضع التنفيذ، في حياتنا السياسية،

والتربوية، والاقتصادية، والثقافية، وعلاقاتنا مع غيرنا من الأمم، مما أتاح لأعدائنا فرصة مقاومتنا، على أساس أن المثال الذي ندافع عنه، مستحيل التنفيذ، أو هو سلفي، أو نظري، أو طوباوي، أو غير ذلك، مما نقرأه صباح مساء، في كتابات المنبتّين، وأيتام الحضارة، والجاهليين الجدد.

إن المقاومة الإسلامية، ترفع سلاح النموذج، لطرد المحتل الصهيوني من فلسطين، وطرد المحتل الصربي من البوسنة والهرسك.. والمقاومة الإسلامية، تقاوم الفكر الصليبي التنصيري، والصهيوني العنصري، داخل المجتمعات المسلمة نفسها، لدرء الخطر الثقافي والإعلامي والسياسي، برفع النموذج، لكن المقاومة لن تكون استثماراً حضاريًّا مستقبليًّا، دائمًا وصامداً، إلا متى أقمنا بوسائلنا تلك، الدولة الإسلامية العصرية الحية القوية، وانصهرنا فيها شعوباً وقبائل، حتى نثبت لأنفسنا، ثم للعالم من حولنا، أن النموذج ليس حلمًا، وأن جهادنا لا يقتصر على رفعه شعاراً، بل الجهاد الحق، ونحن نتوغل في القرن الخامس عشر، يتمثل في تحقيقه وتجسيمه، واستشراف المستقبل، بتضامن إسلامي، أصلب عوداً، ووحدة إسلامية، أعمق جذوراً، ووعي إسلامي أكثر اتصالاً بقضايا عصرنا المتشعبة الدقيقة.. أي في النهاية، قدرة المسلم على تنزيل الإسلام في حياتنا، وتطويع مصيرنا لتقبل رسالته العظيمة.

تلك هي معركة المستقبل، لفرض الآية الكريمة القائلة، بأن الله هو مالك الملك، وأنه له الخلق والأمر سبحانه.

ولكن على أصحاب الفكر الإسلامي، أن لا يتخلوا عن عقلية المنتصر، في أي جدل يفرضه عليهم خصومهم، حين يدعون أننا نسعى نحو مدينة فاضلة، لم توجد إلا في فجر الإسلام، وإننا نحلم بنموذج لا يتحقق.. وردنا على هذا

الجدل هو أنهم أنفسهم، يسعون إلى حلم مستحيل. أليسوا يعتبرون الغرب المسيحي الراهن، سدرة منتهاهم، وغاية منالهم؟! إنهم في كتاباتهم الجاهلية، المسماة خطأ، بالعلمانية، يرسمون لك صورة المدنية الصناعية المادية الغربية، كأنها الأمل المنشود والمثل الأعلى، والخير المطلق، ثم يلهثون وراء سراب، يسمونه اللحاق بركب الحضارة.

إنهم يحلمون ، ونحن نحلم.

ولكن شتان ما بين الحلمين، وشتان ما بين النموذجين..

حلمنا يغرس جذوره في ينبوع حضارتنا الإسلامية، فيستعيد أمجادها، ويحيي قيم الجهاد، والعدل، والمساواة، والمروءة، والإحسان، والتواضع، والزهد، والإيثار، التي أتاحت للإسلام فتوحاته، ومكنته في الأرض..

وحلمهم لقيط، يجري وراء وهم مستحيل، إذ يريدون نسخ مجتمعات الغرب نسخًا ميكانيكيًا، وإلباس شعوبنا أثوابًا، لم تفصل على قياسها، بل وتجريعها بالعنف دواءً ، لم يصفه حكيم لأمراضها.

ثم متى كانت الحضارات المختلفة تتناسخ ؟ إنهم يحمّلون أمتنا مصائب تركيبات ثقافية، وتطورات دينية، وتحولات اجتماعية، وتقلبات سياسية، لم تتفاعل معها، ولم تعرفها قط. وإذا كان الغرب المسيحي اليوم، يمتلك أدوات نهضته، ويعاني بالمقابل من تأثير تلك النهضة، فله مداره الخاص به، وله وسائله المتميزة، لعلاج الخلل الطارئ على تقدمه أو سعادته، أو استقراره، هو حر في استنباط تلك الوسائل.

لكننا لا يمكن البتة، أن نؤسس بيوتنا على أسسه هو، ولا أن ننبت أشجارنا

على تربته هو، وذلك يعني أننا ، لا يمكن أن نبرأ من عللنا بوصفات دوائية، وضعها التاريخ لعلّته هو، بعد أن أعد له ملفًا يضم فصيلة دمه، وأمراضه الوراثية، وكذلك معدل ضغطه، ونسبة السكر في الدم.

ذلك حالنا، إزاء الميالين مع رياح النموذج الغربي، والحالمين بالمستحيل، ونحن نعلم، أن لنا عللاً، وأن لنا خللاً، ولكن العلاج لن يكون بوصفة مستوردة من وراء البحار، قد تصلح لمجتمع بعينه، روعيت فيها معطيات خاصة به، وقدرت له طبيعة الداء والدواء.

ذلك هو ربما جوهر المد الإسلامي الهادئ الرصين الواثق : إيقاف علاجنا كمسلمين بالوصفة الأوروبية، والأمريكية، والروسية، الجاهزة، والشروع في تشخيص علاتنا - السياسية والثقافية والاقتصادية - في انتظار شفائنا بما يراه حكماؤنا الأصليون، وأطباؤنا الصادقون من العلاج الملائم، الموائم. وتلك رحمة من الله ونعمة، بل هي طريق نجاتنا المفردة الوحيدة.

أما أهل الجاهلية، المتجهون كطبق «الدش»، أو كعبّاد الشمس نحو الغرب، فالحجة لديهم، أننا يجب أن ندخل إلى عصرنا، ونصبح عصريين. وفي الحقيقة تم مسخ مصطلح العصرية من أصله اللغوي الحضاري، كنتيجة راهنة لمسار متشعب وبطيء، إلى مفهوم تغطية النموذج الغربي «العلماني»، وإسباغ العصرية العالمية عليه، كنوع من إكسابه الشرعية، وإفراده بالريادة.

«ولما كان الأكثر تقدمًا هو دول أوروبا والغرب بصفة عامة، سواء رأسمالية أو اشتراكية، فقد سادت خصائصهم الحضارية، بحسبانها خصائص العصر، فكرًا وعلومًا وأنماط حياة، وسلوكًا، ومذاهب، وصار حاضر الغرب هو مستقبلنا، وصارت حياته، ومجتمعاته، هي مدينتنا الفاضلة المرجوة.. وأكثر من ذلك،

صار ماضيه، بما أفضى إليه في حاضرهم، هو معيار تاريخ العالم، وبهذا قام مفهوم المعاصرة، بحسبانه مفهوماً مطلقاً، يقوم به إطار مرجعي، ومفهوم شرعي، يضم المجتمعات والدول التابعة كلها، إلى الدول والمجتمعات المتقدمة[1]».

ومن هذا المسخ الحضاري لدار الإسلام، بدأت تدب في أوصالنا أسباب الوهن، ومن هذا الكهف، خرج علينا تنين التبعية والإلحاق، وكان وصول النخب الوطنية، خريجة جامعات أوروبا، إلى سدة الحكم، عند الاستقلال العسكري والإداري، استقراراً للنموذج الغربي المسيحي، في بلادنا، وتخلينا عن حاكمية الله، معتقدين خطأً أننا اخترنا حاكمية الشعب المسماة باللغة اليونانية (ديمقراطية)، ولكنا في واقع الأمر، نفذنا حاكمية النظام الاستعماري الصليبي، وأردنا لأنفسنا حاكميـــة قوانين السلب والنهب، التي وضعت فيها مؤلفات لا تحصى، من أهل أوروبا أنفسهم[2].

وبدلاً من أن نقول كما أمرنا الله ﴿ **قل اللهم مالك الملك** ﴾ قلنا: إن الغرب المصنع والمسلح، هو السيد، وهو القدوة، وقوانينه الوضعية هي قوانيننا، وثقافته هي مطمحنا، وطريقته في الحياة هي غايتنا، وانطبقت علينا قولة عبد الرحمن بن خلدون: من أن المغلوب يسعى لتقليد الغالب، في لسانه، وملبسه ومأكله، وعيشه، وسائر شؤونه.

---

(١) مداخلة المستشار طارق البشري، في ندوة الثقافة العربية: الواقع وآفاق المستقبل، ١٢ - ١٥ أبريل ١٩٩٣م بجامعة قطر.

(٢) عن النهب الاستعماري للشعوب المستضعفة، طالع كتب جيرار شاليان GERARD CHALLIAND وفرانز فانون FRANZ FANON ورجاء غارودي R. GARAUDY ورونى ديمون RENE' DUMONT.

من الخلافة الراشدة إلى الخلافة العثمانية

تلك هي روح الإسلام الجديدة في عنفوانها، وحدة في المشاعر، وتفاعل مشترك إزاء المتغيرات... لكنه تفاعل ظل إلى اليوم عاطفيًا، لعله في زحمة العصر وكثافة المعضلات، لم يجد مجراه، لكن غياب المجرى مؤقتًا، لا يمنع من وجود النهر الواثق العظيم.. فكيف يجد النهر مجراه؟ بل كيف يعود إلى مجراه؟ هذا هو السؤال.

لم يعد خافيًا على أحد اليوم، أن الحلم المشترك، لمليار ومائتي مليون مسلم، هو تلك الثنائية الرائعة:

(١) فجر الإسلام في عهد الرسول الأعظم ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين الأبرار من بعده، رضي الله عنهم وأرضاهم، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي.

(٢) قوة الخلافة العثمانية، واتساع دار الإسلام في أزهى عهودها، وسيطرتها على ثلث مساحات الأرض تقريبًا.

هذان الوجهان للحلم الإسلامي، يمثلان الخلفية الفكرية، الأكثر عمقًا، والأوفر تواجدًا، في الضمير المسلم، مهما كان موقع الصحوة جغرافيًا، وكيفما كانت درجة وعيها حضاريًا، وطبيعة علاقتها بالسلطة القائمة سياسيًا.

هذان الأساسان التاريخيان، هما اللذان يتم عليهما عادة إنشاء الصرح السياسي، الملقب بالمشروع الإسلامي الحضاري، مثلما يؤسس المشروع الديمقراطي على تاريخ الثورة الفرنسية (١٧٨٩م)، ومثلما يؤسس المشروع الاشتراكي على الثورة الروسية (١٩١٧م).

هذان هما المرجعان، أخلاقيًا، وسياسيًا، واقتصاديًا، وفقهيًا.

– فجر الإسلام ، والخلافة العثمانية .

طبعًا عندما تقرأ آلاف الكتب والمقالات، الصادرة عن الإسلام الراهن، وعندما تحضر مئات الندوات والمؤتمرات، المنعقدة عن أمة الإسلام، سوف تعجب من وفرة المصادر التاريخية، والمرجعيات الفكرية، ولا بد أن تعثر على تاريخ الدولة الأموية، والدولة العباسية، وفتوح هاتين الدولتين، وأسباب تقدم الحضارة الإسلامية، في عهديهما، شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوباً، ثم لا بد أن تلمس العناية بدول: السلاجقة، والفاطميين، والموحدين، والمرابطين، وأن تجد اهتمامًا فائقًا بمنارات أصبحت رموزاً للإسلام ، أمثال عمرو بن العاص، وموسى بن نصير ، وعقبة بن نافع ، وصلاح الدين الأيوبي ، وعبد المؤمن بن علي ، وغير هؤلاء الأبطال كثيرون.

لكن الحلم الكامن في الضمير الجماعي، لدى صفوة المسلمين، وفي الشارع الإسلامي، هو بلا منازع المتعلق بالمرجعين: فجر الإسلام في نقائه، وجلاله وصفائه وسنة رسوله، وأخلاق خلفائه الأربعة من جهة، ثم الخلافة العثمانية بقوتها العظمى، وسيطرتها على البحر والبر، وسيادتها على المضايق، وعدم تفريطها في أراضي المسلمين وأعراضهم من جهة ثانية، كآخر خلافة جامعة للمسلمين حتى العشرينيات من هذا القرن.

ومن الطبيعي أن يكون هذان المرجعان، هما الحلم الحي، المنعش لصحوة الإسلام الراهنة، والمحرك القادر للحركات الفكرية الإسلامية، في زمن صعب ومتشعب، يعتبر النقيض تمامًا وعلى كل المستويات لهذين المرجعين الكبيرين.

يعيش الشباب المسلم، أينما كان نقيض هذين المرجعين، فبينما هو يتأمل

عدل الرسول ﷺ وعدل خلفائه البررة رضي الله عنهم، يعيش واقعًا يتميز بالمظالم على أصعدة كثيرة: سياسية، وقضائية، واقتصادية.. وبينما يقرأ عن جهاد فجر الإسلام، يعيش سلسلة متصلة من الاستسلامات.. وبينما يتذكر الانتصارات والفتوح، التي انطلقت من جزيرة العرب، حتى غطت نصف المعمورة، يعاني من الهزائم المتوالية، والغزوات الصليبية والصهيونية المتعاقبة، على أرضه وثقافته وثرواته . وتتحول لديه ، وفي ضميره ، صورة الخلافة العثمانية – آخر الخلافات – إلى غاية منشودة، بما كانت ترمز إليه، رغم نواقصها وعثراتها، من اجتماع المسلمين في كنف واحد، وتضامنهم شعوبًا وقبائل، مهما اختلفت أعراقهم وأجناسهم.

فالماضي لدى شباب الإسلام، يكاد يكون مختزلاً في هذين الأصلين، ويصبح الماضي في الوعي الإسلامي المشترك مستقبلاً، تتطلع إلى تحقيقه تلك الحركات الفكرية والسياسية، التي تعتمد الإسلام منطلقًا، وقاعدة وأداة كفاح.

والخطر المحدق، هو أن يظل الحلم حلماً، ولا يتحول إلى واقع.

الخطر أن يجهض الحلم ، وهو بصدد التكوين ، فيقع وأد النطفة ، لكي لا تصبح جنينًا في رحم الحضارة.

الخطر أن يتجمد الفكر المسلم، ويتجلد، وهو في مرحلة الحلم بالمرجعين الأساسين ، بينما يفرض عليه أعداؤه الأمر الواقع ، بتضافر قوى الردة ، والجاهلية ، والصليبية ، والصهيونية.

كيف يمكن توظيف المثل الأعلى، لتحديد مصير إسلامي أفضل؟ فقد أثبت التاريخ الإنساني، أن المثل العليا يمكن أن تظل مثلاً عليا، على مدى قرون طويلة ولا تتجسم.. وأسطع مثال على ذلك، المدينة الفاضلة، التي رسم

ملامحها الفلاسفة الإغريق (بداية من ٤٩٠ قبل المسيح)، فتبارى أفلاطون، وسقراط، وأرسطو، وديمقرطيس، وأبيقور، وليوكريتس، على مدى أربعة قرون، في تشييد مشروع فلسفي متكامل، ظل على مدى ألفي سنة، أي إلى يومنا هذا، مجرد مشروع . . . محض حلم ذهني.

والمدينة الإغريقية الفاضلة (جمهورية إفلاطون)، تناولت لأول مرة في التاريخ الإنساني المعروف، قضايا الحرية، والعبودية، والأخلاق، والهمجية، والطبيعة، والسلطة، والدين، والجنس، وحدود المقدرة البشرية، أي تعمقت في كل المستويات الفلسفية المعلومة لدينا . . لكن المشروع، ظل مشروعاً، وانتهت أثينا إلى نوع من الحكم القهري، وإلى انقسام حاد وشرس بين الأحرار والعبيد (١٥٠ ألفًا من العبيد في مجتمع يعد ٤٠٠ ألفًا من المواطنين)، وإلى انتحار الفلاسفة، واضطهادهم، ونفيهم، وقتلهم. وخارجيًّا انهار المشروع الطوباوي، في حروب طويلة بين أثينا واسبرطة، وحروب أطول بين اليونان والفرس.

ثم انتهت مغامرة الإسكندر إلى انتصار القوميات، التي أراد أن يصهرها، ونشوء الأوطان، التي أراد أن يقهرها، وقيام الحدود، التي أراد أن يمحوها.

وكان الإسكندر بن فيلبوس المقدوني، في تلك النهاية، يشكل تحطم مشروع الفلسفة اليونانية على صخور التاريخ، وجاءت سورة الكهف في القرآن الكريم تلخص من الآية ٨٣ إلى الآية ٩٩ هذه الجملة من التداعيات، قال تعالىٰ:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ

إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾. (الكهف : ٨٣ – ٩٨)

ولا يفوتنا تمسكًا بالدقة، أن نشير في هذا الباب، أن اختلافًا كبيرًا، قام بين علمائنا المفسرين، حول هوية ذي القرنين المذكور في سورة الكهف. فبينما أقرّ الآلوسي، والثعالبي، وغيرهما، أن المقصود هو الإسكندر المقدوني، نفى ذلك ابن كثير، ومحمد الطاهر بن عاشور ،وغيرهما، وقدم كل من الفريقين حججًا وبراهين، بل إن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي (القرن الثاني هجري – الرابع عشر مسيحي) يروي «أن جميع من ملك الدنيا كلها أربعة: مؤمنان وكافران: فالمؤمنان سليمان بن داود عليهما السلام، والإسكندر الأكبر، والكافران نمرود وبخت نصر».

ونميل نحن إلى الاعتقاد إلى ما أكده الشيخ سعيد حوّي، حينما ذكر أن النص القرآني لا يذكر شيئًا عن شخصية ذي القرنين، ولا عن زمانه، أو مكانه،

فالمقصود إذن هو العبرة المستفادة من القصة، والعبرة تتحقق بدون الحاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان[1].

وإني أستدل بعرض هذه القصة القرآنية، على أن الله سبحانه وتعالى، ضرب المثل بها، على هشيم المشروع الحضاري الإغريقي: ﴿ **قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقًّا** ﴾.

فالإسكندر كان تلميذاً لفلسفة اليونانيين، وتعلم منهم مجموعة القيم التي انطلق غازيًا، لتجسيمها، واختلف المؤرخون بعد ذلك في قضايا إيمانه وتوحيده، لكن العبرة – في نظري المتواضع – من ذكره في سورة الكهف، هي الإقرار حسب نص الآية الكريمة، بأن وعد ربي كان حقًّا، حين اندثر صرح الإسكندر الأكبر، لأسباب عديدة، أحصت تلك الآيات البينات خلفياتها، ولسنا في هذا المجال بصدد إفرادها بالتحليل.

لكن هنا تتجلى إرادة الله تبارك وتعالى.. كأنما اندثر الحكم الإغريقي إلى حين أعدّ الله الأمة الإسلامية، في خلافة الدولة العباسية لإحيائه، وتعريبه وتوزيعه، بل وإثرائه ونقده وتحديثه، حتى كانت الريادة الحضارية للإسلام الحنيف، بفضل تفاعل ذلك التراث العلمي والفلسفي اليوناني، مع العقل المسلم، الذي تميز بالمغامرة الفكرية الموفقة، والتسامح الفطري الرائع، وإرادة الفتح، والانتشار بالثقافة والعلوم والآداب.

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى، المجلد السادس، ص ٣٢٢٠.

الخلاصة

لقد حاولنا في فصول هذا الكتاب، أن نتجنب الجدل مع صاحب نظرية صراع الحضارات (أو صدام الحضارات) تيمُّنًا بالفقهاء المسلمين الأولين، الذين يتورعون عن الخوض في صراع شخصي، أو فكري، مع صاحب رأي، مفضلين على الصدام إقامة الحجة، وإصابة المعنى، وإيجاز اللفظ.

ولقد رد على صمويل هنتينجتون، مثقفون مسلمون كُثر[1] جزاهم الله خيرًا، كفونا مؤونة المواجهة الفكرية. إننا أردنا هذا العمل، بيانًا لما يمكن للمسلم أن يتحصن به، من جليل المثل، وكريم المبادئ، وقوي العتاد، وهو يسعى لحوار الحضارات، فلا يتأخر عن نداء المصير، متمسكًا باحترام صادق لكل الحضارات، رافع الهامة بكبرياء مشروعة، معتزًا بذلك الذخر النادر، والكنز الثمين: تراثه التشريعي، والسياسي، والاقتصادي، والثقافي الإسلامي.

ثم إننا لا بد أن نستخلص صفوة الاعتبار، من نظرية هنتينجتون، لأنها ليست نتيجة اجتهاد ذاتي، لأحد الأساتذة الأمريكان، بل هي أرضية لاستراتيجية السياسة الخارجية الأمريكية والأوروبية، بإزاء الأمة الإسلامية، حتى وإن لاحظنا اختلافًا طفيفًا حول الجزئيات، ثم إنها تترجم يوميًّا، في منطق النظام العالمي الجديد، إلى مواجهة معلنة، مع تطلعات المسلمين الشرعية، وحقوقهم الطبيعية، وتكفي الإشارة إلى مأساة الشعب البوسني المسلم، وهو يستشهد في قلب أوروبا، ضحية صراع الحضارات، ويكفي النظر في فاجعة الشعب

---

(١) آخر ما صدر : كتاب الأستاذ محمد جلال كشك ، مكتبة التراث الإسلامي ، مصر ، ١٩٩٤م ، بعنوان : قراءة في فكر التبعية .

الفلسطيني المسلم، وهو يقاوم الهمجية الصهيونية، ويسقط شبابه بالعشرات كل يوم، وكذلك الحال بالنسبة للوجود المسلم في أوروبا، حيث تعاني الأقليات المؤمنة بالله، اضطهاد اليمين المتطرف، والنزعات الصليبية المرخص لها بالعمل السياسي، والمشاركة في هياكل الحكم، باسم الديمقراطية.. وتكفي الإشارة أيضاً إلى التيه، في المجتمعات المسلمة، بين الحفاظ على الأصول، والهرولة وراء أوهام اللحاق بركب الشعوب الغربية.

هذه بعض مظاهر الصراع بين الحضارات، مما يدل دلالة قاطعة، على أن نظرية صمويل هنتينجتون، كما أسلفنا، ليست مجرد طرح شخصي، قابل للنقاش أو التفنيد، بل هي تلخيص نظري سياسي، لمجمل العلاقات الدولية، بين الغرب والحضارة الإسلامية، كما يراها الغرب، ويخطط لتنفيذها.

لذلك وجب علينا اختزال مطالبها، والتعرف إلى ما تهيئه لنا النظرية، من سوء العاقبة، وبئس المصير.

يرى هنتينجتون :

(١) أن الديمقراطية نعمة غربية، لا يمكن أن يتمتع بها المسلمون، لأنهم باسمها ينصبون في الحكم الاتجاهات المتطرفة .

(٢) أن السلام الدولي، يجب أن يقتصر على الغرب، لأن انسحابه على العالم الإسلامي، يحرم الغرب من بيع السلاح، وشفط الاحتياطي من الثروات.

(٣) أن تحديد النسل عملية استعجالية للعالم الإسلامي، نظراً لتزايد المسلمين، واختلال التوازن الديمغرافي مع العالم الغربي.

(٤) من الحكمة أن يقع دعم وتأييد، الجماعات الموالية للمصالح والقيم الغربية، في العالم الإسلامي .

(٥) تقوية المؤسسات الدولية، التي تعكس المصالح الغربية، وإعطاؤها الشرعية والعمل على دفع الدول غير الغربية، للانضواء تحت جناح هذه المؤسسات.

(٦) مزيد من تكريس الحضارة اليهودية المسيحية، ذات المبادىء المشتركة، بإزاء الحضارة الإسلامية[١].

هذه هي أبرز عناصر نظرية صدام الحضارات، باختصار مفيد، لأن مقالة هنتينجتون الشهيرة، تمضي في تحليلها، وتفسيرها، بإعطائها أبعاداً استراتيجية عديدة، ومن اليسير أن يفهم القارئ، أن إضافة الحضارة الكنفشيوسية، بجانب الحضارة الإسلامية، في مواجهة الغرب، ما هو إلا للتخفيف، من عنف ذلك الصدام المعلن، وإنما تفكير صاحب النظرية كله كان متجهاً للإسلام، وصحوته الجديدة، التي يصفها هنتينجتون، بأنها «صحوة متوحشة مفترسة»، بينما يصف الخطر الأصفر (الصيني أساساً) بأنه «خطر بطيء ومعتدل».

ومن خلال الاستنتاجات الستة، التي يقترحها المقال، يمكن أن نستخلص نحن ست مناهج مضادة، تكون في مصلحة الإسلام، وتصب في خير المسلمين، وتجعل الحضارات المستكبرة، تقرأ لأمتنا حسابها، كلما سعت الإنسانية إلى تحقيق مصيرها المشترك، عوض محاولات تهميشنا خارج حركة التاريخ:

(١) إذ اعتبر هنتينجتون الديمقراطية نعمة غربية، فإن علينا اعتبار الشورى نعمة إسلامية، وممارستها في كل مستويات مجتمعاتنا، حتى يقع حل المشكلة

(١) هذه العناصر الستة مستقاة من تعريب محمد جلال كشك، لفقرات مطولة من مقال: صراع الحضارات، والرد عليه. المرجع السابق من ص ٤٢٩ إلى ص ٤٦٩.

الكبرى المطروحة في عالمنا الإسلامي، ألا وهي مشكلة الشرعية، فنكون بذلك حققنا إنجازاً سياسيًّا عملاقًا، يتمثل في التوافق بين إرادة الحاكم، وإرادة المحكوم.

فالشرعية هي مصدر قوة الشعوب، وانعدامها يجعل الراعي في واد، والرعية في واد، ولا يلتقيان ، مما يصرف الأمة عن رفع تحدياتها، ويطلق العنان للاستبداد والضلال، ويفتح أبواب العنف، والعنف المضاد، ولما عناه عبد الرحمن بن خلدون حين قال: تصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات[1].

(٢) يقترح هنتينجتون استثناء المسلمين من عملية السلام، ونرى نحن أن تسعى الشعوب المسلمة، أولاً إلى إقرار السلام المدني، في داخلها، وبين أبنائها، ثم إقرار السلام ثانيًا بين بعضها بعضًا. فصراع الحضارات موجود داخل المجتمعات المسلمة كلها، ويكاد يكون محتدماً، داخل معظم الأسر المسلمة، نظراً لاختلاط القيم، وامتزاج المفاهيم، بين الأصالة والمعاصرة. فالسلام مفقود في ذواتنا، وعلينا استحضاره بيننا، بعمل تربوي مؤصل، وحركة فكرية حرة، والدخول إلى العصر من مسالكنا الأصيلة. وإذا تحقق ذلك، يصبح السلام بيننا، وبين الشعوب الأخرى، ممكنًا لأنه يعقد ميثاقًا بين أمم نظيرة، منيعة، وإلا فهو سلام هش، يقوم على الهيمنة والسلب والإخضاع.

(٣) كان الموقف الإسلامي في المؤتمر العالمي للسكان والتنمية[2] موقفًا متناسقًا، ولا بد من عمل إسلامي، مكثف لإلغاء جرائم الإجهاض، التي ترتكب في بعض المجتمعات المسلمة، تحت ستار التنظيم العائلي، وتحرير المرأة، وهي جرائم رفضتها الضمائر الكتابية، في أمريكا وأوروبا. فتنظيم العائلة المسلمة، له

---

(١) المقدمة ، مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) القاهرة ، سبتمبر (أيلول) ١٩٩٤م .

وسائل أخلاقية أخرى، غير هذه العمليات الإبادية، الرامية إلى إعدام المسلمين في الأرحام، قبل إعدامهم في الانتفاضات، والمداهمات، والمصادمات.

(٤) يدعو صمويل هنتينجتون، إلى دعم الجماعات الموالية للمصالح والقيم الغربية، في العالم الإسلامي، وهذا من حقه كمدافع عن حضارته، ولكن من واجبنا نحن، دعم الاتجاهات الموالية للمصالح والقيم الإسلامية، إذا ما تحلت بالفضيلة، والوسطية، والاعتدال.

(٥) يطرح هنتينجتون بوضوح مباشر، ما يومئ إليه غيره بتقية، وهو أن المؤسسات الدولية، من منظمة أممية، ومجلس أمن، ومصارف، ومنظمات مختصة تابعة لها، تعكس المصالح الغربية، وتعطيها الشرعية. وصاحب هذا الاعتراف مشكور على تأكيد ما نعتقده نحن، وما أشرنا إليه منذ عقدين على الأقل. ولكننا مدعوون كأمة إسلامية، ذات وزن، وتمثل خمس الإنسانية، أن نعود بهذه المؤسسات الدولية، إلى احترام مواثيقها، والحرص على خدمة قضايا الحق والعدل والسلام، ونحن نسجل بأسف ومرارة، استعمال الأمم المتحدة، أداة لإضفاء الشرعية على عالم المظالم الدولية، الموجهة ضد المسلمين، في كل بقاع الدنيا، حتى أفرغت من محتواها، وسخرت لعكس ما وضعته لنفسها من رسالة. ولابد كذلك من تفعيل أجهزة إسلامية، مثل منظمة المؤتمر الإسلامي، بعد فشل جامعة الدول العربية.

(٦) يضيف صمويل هنتينجتون لبنة أخرى إلى هرم شامخ من البهتان التاريخي، والتزوير الحضاري، بإلحاحه على تكريس ما سماه: الحضارة اليهودية المسيحية. فاليهود شرقيون، وارتباطهم بالحضارة الإسلامية وثيق وقوي، ولم

يحمهم من اضطهاد المسيحية، إلا المسلمون، في أحداث عظمى، معروفة مثل محاكم التفتيش في الأندلس (١٤٩٢م)، حيث التجأوا إلى الخلافة الإسلامية والمغرب الإسلامي، ثم عمليات إبادة النازية (١٩٣٩-١٩٤٥م)، حيث احتضنتهم الشعوب المسلمة، قبل أن يتحولوا إلى رأس حربة، للإمبراطوريات الاستخرابية، عام ١٩٤٨م، بتأسيس كيان عنصري، متوسع باستمرار، في فلسطين. إن علينا كمسلمين، اعتبار اليهود أصحاب دين سماوي كريم، لا يحق لهم العدوان على حقوقنا في القدس الشريف، وفرض وضع مُخزٍ على ملايين المسلمين في فلسطين. فكل سلام لا يؤسس على الحق، والعدل، والقسطاس، سلام قصير هش زائل، وليست هناك مرجعية للقضية الفلسطينية، إلا المرجعية الإسلامية، من جهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى جهاد عز الدين القسّام رحمه الله، مروراً بجهاد صلاح الدين أكرم الله مثواه.

اللهم اجعلنا في عداد ﴿**الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم**﴾، واجعل كتابي هذا نصراً لأمتك، وتعزيزاً لدينك، واغفر لي، واعف عني، إن قصرت، أو أخطأت، فغاية مناي أن أثير الأقلام الصادقة، وأستنفر النفوس المؤمنة، لتدارس أحوال المسلمين، ونحن في عصر الاتصالات الآنية، والثقافات الطاغية، والقوى المهيمنة، فعسى أن تكون لجيلنا أمانة يؤديها، ورسالة يبلغها، حتى يتبين لنا الرشد من الغي، والخير من الشر، والحق من الباطل.

سبحانك اللهم أنت مولانا، ونعم النصير.

الفهـــــرس


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


مطابع الدوحة الحديثة
ص. ب ١٤٥ الدوحة - قطر